الدراسات الإسلامية

العدد الأول ـ المجلد الرابع والأربعون ـ الربيع (يناير ـ مارس ٢٠٠٩م/ محرّم ـ ربيع الأول ١٤٣٠هـ)

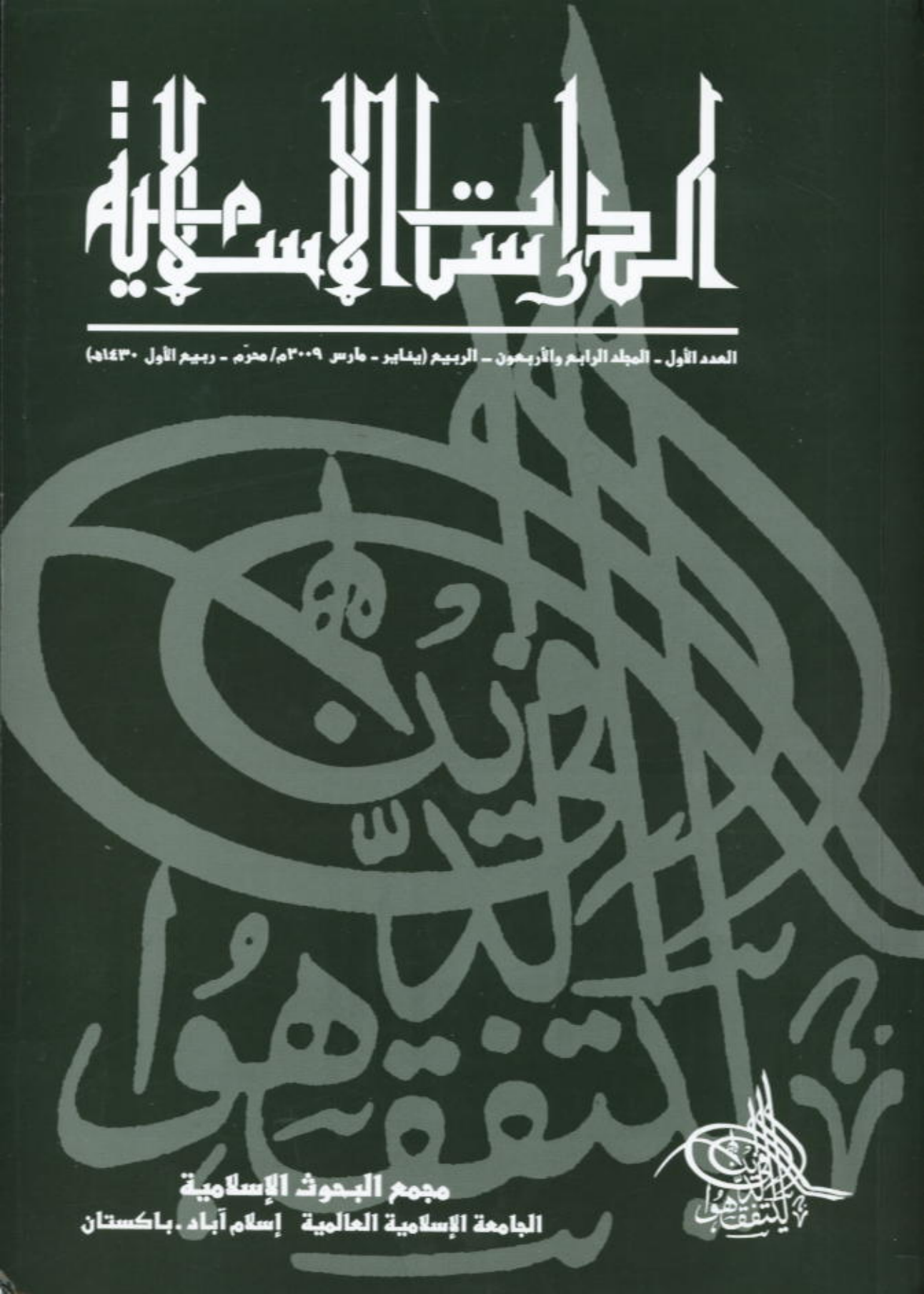

مجمع البحوث الإسلامية
الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد. باكستان

القيم الحضارية في رسالة خير البشرية ﷺ

تأليف

د . محمد بن عبدالله بن صالح السحيم
أستاذ مشارك قسم الدراسات الإسلامية
كلية التربية جامعة الملك سعود

عضو الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة
والأديان والفرق والمذاهب
عضو الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ سورة آل عمران الآية 164

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

﴿إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
سورة الأعراف الآية 157

قال ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة:
((وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر عبر التاريخ كله.
إلى أن قال: وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينا سهلا واضحا قويا وصرحا خلقيا.واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة وأن يبقى إلى يوم الناس هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم). المجلد الثالث عشر، ص47.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته وتعظيمه، وأفرغ قلوب من سواهم من معرفته وتقديره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله تألهه القلوب محبة وإجلالاً وتعظيماَ، وتلجأ إليه النفوس رغبة ورهبة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله وصفيه وأمينه على وحيه، أرسله الله على حين فترة من الرسل لينقذ البشرية من عبودية الشهوات والهوى، ويصلها بخالق الأرض والسماء، فكان إماماَ للسالكين، وكانت رسالته رحمة وهداية للخلق أجمعين، وبشارة للعالمين، وخلاصاَ للمضطهدين، فصلى الله عليه وسلم تسليماَ كثيراَ. أما بعد

فإن الباحث حين ينظر في تاريخ الحضارات ويتأمل المكان الذي انطلقت منه هذه الحضارات يجد أن القاسم المشترك بينها كلها أنها قامت على شواطئ الأنهار، أو سواحل البحار، فلا تقوم الحضارات إلا قريباً من مصادر الماء، ولكن حينما تنظر في الحضارة الإسلامية تجد أنها انطلقت من مكة المكرمة وهي وادٍ غير ذي زرع، فلا ماء ولا نهر، ولكن كان معها ما هو خير من الماء, إنه الوحي الإلهي، وهذا الوحي هو بمثابة روح للحياة وللأحياء,قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ سورة الشورى،52، 53.

ولذا كانت الرسالة الخاتمة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مشتملة على كل ما يحتاج إليه الجنس البشري للتعبد بدين راشد، وإقامة حضارة متكاملة- من عقائد وأحكام وقيم ومبادئ ومُثُل، وعمارة وعلوم تجريبية ونظرية (أدبية وإنسانية)، فكانت هذه الرسالة الإلهية أساساً ومنطلقاً ومرشداً للحضارة الإنسانية الخاتمة، ومما يذكر للحضارة الإسلامية أنها لم تُقْص الحضارات السابقة ؛ بل استوعبتها وأخذت ما فيها من محاسن، وزادت عليها، وبينت ما فيها من مثالب، وعجزت الفلسفات التالية والأديان كافة أن تقضي عليها أو تقصيها، وحققت انتصارات عظيمة، وقدمت للبشرية مكاسب عديدة في زمن قصير,يشهد لها بذلك المخالفون لها يقول جورج بوش الجد 1796-1859م أستاذ اللغة العبرية والآداب الشرقية في جامعة نيويورك:(لقد وضع {أي محمد ﷺ } أساس إمبراطورية [1] استطاعت في ظرف ثمانين سنة فقط أن تبسط سلطانها على ممالك وبلاد أكثر وأوسع مما استطاعته روما في ثمان مئة سنة، وتزداد دهشتنا أكثر وأكثر إذا تركنا نجاحه السياسي وتحدثنا عن صعود دينه وانتشاره السريع واستمراره ورسوخه الدائم. والحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام والإسلام لا يمكن تفسيره إلا بأن الله كان يخصهما برعاية خاصة، فالنجاح الذي حققه محمد ﷺ لا يتناسب مع إمكاناته، ولا يمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة. لا مناص إذن من القول إنه كان يعمل في ظل حماية الله ورعايته، لا تفسير غير هذا لتفسيرِ هذه الإنجازات ذات النتائج الباهرة). [2]

(1) لا يقر المؤلف على تسمية الإسلام بالإمبراطورية، فالإسلام دين ودولة.

(2) محمد ﷺ مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين ص 353.

وحينما تستعرض أصول المقومات التي يتطلبها بناء أي حضارة راشدة تجد أنها لا بد لها من مقومات أساسية وأخرى مساعدة, ومن أبرز هذه المقومات وأعظمها مما يتوقف عليه بناء الحضارات هي:

أولاً: دين صحيح يحقق للفرد عبوديةً للروح، واستقامةً للبدن، وصلاحا للمجتمع، وسلامةً للمنهج، ويرشده إلى الوسائل الصحيحة، ويضمن له سعادة الدارين.

ثانياً: علم صحيح يكشف له الحقائق الغائبة، ويدله على الغايات الصحيحة، ويخبره بحقيقة نفسه، ويمده بالمنهج العلمي الذي إذا سلكه أثمر له النتائج الهادفة، وأراحه من عناء طلب المستحيل، واختصر له الزمن في البحث عن حقائق القرون الأولى التي كشف القرآن حقيقة مسيرتها وبين نهايتها, وأن يشتغل في مجال هذا العلم الصحيح ليثمر له نتائج صائبة تنأى به عن النقائض الجدلية.

ثالثاً: عدل تام يتساوى فيه الرئيس والمرؤوس، والغني والفقير، وذو الشرف والوضيع، عدل تام يناله العدو والصديق، ويحكم من خلاله على الناس كافة من غير نظر إلى معايير زائفة أو متغيرة بحسب صاحب الحق.

رابعاً: غايات واضحة، وسليمة، ومحددة، تريح القلب من الحيرة، وتجعل النفس تنفعل من أجل سمو الغاية وسلامة الوسيلة، وتكشف للنفس غياهب المستقبل، فيعمل الإنسان على نور من ربه، يعرف بدايته ونهايته، ويوقن بجزائه وحسابه، ويتفانى من أجل مستقبل جماعي مشترك.

خامساً: حب صادق يلتئم من خلاله شمل المجتمع، وتلتقي بسببه القلوب على الصدق والحب والإيثار، وتتعاون النفوس كأنها أعضاء في جسد واحد، إذا اشتكى منها عضو تداعى له بقية الأعضاء بالسهر والحمى، كل فرد لا يرى أنه أحق بدرهمه ودينار من أخيه وجاره.

وهذه الأصول قد جاء بها الإسلام وأكدها ، وحث على ما يدعو إليها، وحذر مما يعارضها أو يشينها أو يقضي عليها، كما ستراه في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

وإن القارئ المنصف إذا نظر في أي مقوم من مقومات الإدارة أو أي مقوم من مقومات الحضارة ثم نظر في نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة سيجد أن القرآن والسنة قد تظاهرا على الدلالة والتوكيد عليها، وعلى سبيل المثال إذا نظر فيما يسمى القواعد العشر أو المبادئ العشرة في علم الإدارة — سيجد أن الإسلام قد حث عليها وسبق إليها. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الباحث إذا نظر إلى أي موضوع من موضوعات هذا الدين أو مقوم من مقومات الحضارة التي جاء الإسلام

بالدعوة إليه – ظن لأول وهلة أن الإسلام إنما جاء لهذا الغرض فقط، أو أن هذا الموضوع هو الموضوع الرئيس في الإسلام؛ لكثرة ما يرى من النصوص الدالة عليه؛ ولذا فلن أستطيع أن أجمع في هذا البحث كل النصوص المتعلقة بأي موضوع تناولته وأشرت إليه؛ إنما أكتفي بما يدل عليه ويبين مكانته في الإسلام، كما أنني لم أتمكن من الإحاطة بكل مقوم من مقومات الحضارة مما جاء به الإسلام، وإنما حسبي أن أشير إلى أساس هذه المقومات وأذكر أبرزها بحسب اجتهادي، مستدلاً على ذلك من الكتاب والسنة المطهرة .

وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسة هي:

المبحث الأول: القيم العلمية ويندرج تحتها ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: العلم

المطلب الثاني: الدين

المطلب الثالث: الإتقان

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية ويدخل تحتها سبعة مطالب هي:-

المطلب الأول: الوسطية

المطلب الثاني: العناية بالمرأة

المطلب الثالث: الحب

المطلب الرابع: الرحمة

المطلب الخامس: السلام

المطلب السادس: الخلق

المطلب السابع: النظافة

المبحث الثالث: القيم الإدارية ويندرج تحتها ستة مطالب وهي:

المطلب الأول: الشمول للمبادئ والعقائد

المطلب الثاني: ضمان الحقوق

المطلب الثالث: تنمية المال والمحافظة عليه

المطلب الرابع: العدل

المطلب الخامس: القوة

المطلب السادس: احتمال المخالف

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، موافقاً لسنة نبيه ﷺ، وأن يكون من العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعله سبيلاً إلى الدعوة إلى دينه الحنيف، وهادياً إلى صراطه المستقيم، منافحاً عن رسوله وكتابه، (وإلى الله جلّ اسمه ألجأ في تصحيح عملي ونيتي، وإليه أبرأ من حولي وقوتي، ومنه استمد الهداية لهمي وعزمتي، وإياه أسأل العصمة والولاية لجملتي، والعفو والغفران لذنبي وزلتي؛ إنه منعم كريم).[1]

وفي ختام هذا المقدمة أشكر الله وهو أهل الشكر ومستحقه على ما منَّ به ولطف ويسُر من إتمام هذا العمل المتواضع، وأشكره سبحانه على نعمه المتوالية ومننه المتتابعة، وأسأله أن يتم نعمته علي بمغفرة ذنبي وحسن خاتمتي، كما أشكر كل من أعان على هذا البحث .

والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين .

د. محمد بن عبدالله بن صالح السحيم

جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية

الرياض تحريراً في 1428هـ

المبحث الأول: القيم العلمية

يتناول الحديث في هذا المبحث ثلاثة مطالب تشترك في قاسم واحد، وترتبط برباط واحد، ألا وهو الدليل والبرهان، فالعلم والدين والإتقان لا يقوم ساقها ولا يشتد عودها إلا على دليل جلي، وبرهان واضح، وحجة دامغة، ولأن العلم هو أساس الدين، وهو مقدم على العمل به؛ فقد قدمته في هذا المبحث، ثم يتلوه الدين، ثم يختم بالإتقان .. فإليك تفاصيل ذلك:

المطلب الأول: العلم

(1) مشارق الأنوار، 7/1.

هذا الدين العظيم هو دين العلم، ولو سئل المنصف عن أبرز وأعظم جانب من جوانب الدين لقال: العلم، فما من مسألة إلا وللعلم فيها حظ وافر، تأسيسا أو استدلالا، وفي المسائل التالية نتبين مكانة العلم في هذا الدين .

المسألة الأولى: بيان اهتمام الإسلام بالعلم .

يعجز الباحث في هذا الباب أن يحيط بما جاء في الإسلام من جوانب مشرقة تبين اهتمام الإسلام بالعلم، فتارة يأتي الحث على التعلم، وتارة يأتي بيان فضل أهله، وتارة الإخبار أن مكانتهم أعظم من مكانة المجاهد في سبيل الله، وتارة بيان أن منزلة العالم أعظم عند الله من منزلة العابد... إلى آخر هذه الجوانب المضيئة التي نذكر طرفاً منها وهي:-

الجانب الأول: الحث على تعلم العلم

مما يدل على ذلك أن أول آية نزلت على الرسول محمد ﷺ هي قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سورة العلق، 1-5. ويذكر ابن عاشور أن من أغراض هذه السورة:(تلقين محمد ﷺ القرآن وتلاوته, إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل، والإيماء إلى أن عِلمه بذلك ميسر؛ لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء، وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم، وتوجيهه إلى النظر في خلق الله للموجودات وخصوصاً خلقه الإنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من علقة؛ فذلك مبدأ النظر).[1]

ومما يدل على ذلك أيضاً أن الله أمر رسوله ﷺ أن يبدأ بالعلم قبل العمل فقال تعالى:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ سورة محمد، 19. قال ابن جرير عند تفسير هذه الآية: (فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كلُّ ما دونه،

(1) تفسير التحرير والتنوير 434/15.

واستغفر لذنبك وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء). [1]

وبين النبي ﷺ أن طريق العلم طريق موصل إلى الجنة فقال ﷺ:(من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة).[2] وهذا الحديث ورد مطولاً عند الترمذي بلفظ: (من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة, فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر). [3]

وقال ﷺ:(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين). [4] قال ابن حجر رحمه الله في بيان معنى هذا الحديث:(وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم). [5]

ومما يوضح فضل العلم والتعلم هذا المثال الذي ضربه النبي ﷺ للعلم ولمن أخذه ووعاه وأداه, فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال:(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به). [6]

الجانب الثاني: مكانة العلم والعلماء

---

(1) جامع البيان 53/26.

(2) صحيح مسلم، ح 2699، 2074/4.

(3) سنن أبي داود 354/3، وسنن الترمذي48/5، وسنن ابن ماجه78/1، وسنن الدارمي، ح 342، 110/1.: قال عنه الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم: 6298 .

(4) صحيح البخاري، ح 71، 39/1، وصحيح مسلم ح 1037، 718/2.

(5) فتح الباري165/1 .

(6) صحيح البخاري ح 1،42/79. واللفظ له، وصحيح مسلم ح 2282، 1787/4.

من أعظم ما يبين مكانة العلم وأهله أن الله سبحانه وتعالى قرن شهادته بشهادتهم على أجل وأعظم مشهود وهو الشهادة له سبحانه وتعالى بالوحدانية فقال تعالى:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَاب ﴾سورة آل عمران،18،19. قال ابن كثير رحمه الله: (شهد تعالى وكفى به شهيداً، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين: (أنه لا إله إلا هو) أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى:(لكن الله يشهد بما أنزل إليك). الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام).[1]

قال ابن القيم رحمه الله موضحاً فضل ومكانة أهل العلم وذاكراً وجوهاً كثيرة تدل على علو درجتهم نذكر منها ما له تعلق بهذه الآية حيث يقول: (استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾. وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه: أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر. والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته. والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته. والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم؛ فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ:(يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين...)([2]) الخامس: أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً. السادس: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدْر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم. السابع: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده. الثامن: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم, ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه

(1) تفسير القرآن العظيم 354/1.

(2) السنن الكبرى للبيهقي 209/10، الحديث صححه الإمام أحمد كما في البدر المنير لابن الملقن (259/1) وضعفه غيره.

شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً).[1]

وبين جل ثناؤه في آيات كثيرة أنه يرفع درجات العلماء فقال عز شأنه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ سورة المجادلة، 11. وأنهم لا يستوون مع من ليسوا من أهل العلم فقال سبحانه:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ سورة الزمر، 9. قال ابن القيم رحمه الله:(نفى سبحانه التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى:﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، كما قال تعالى:﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم).[2]

الجانب الثالث: بناء المنهج العلمي

أقام هذا الدين لأتباعه منهجاً علمياً رشيداً في النظر والاستدلال والتدبر والتفكر وكيفية التعامل مع المستقبل, وبين في كل فن وعلم ما يحتاج الإنسان إليه، والأصول التي يرجع إليها وينطلق منها، وسأشير إلى شيء من ذلك فيما يلي:

أولا: المنهج العلمي في الاستدلال: وهذا المنهج يقوم على ركائز وأسس متينة لا تميل مع الهوى، ولا تخضع لتقليد موروث، أو تحابي رئيساً متبوعاً، وهذه الركائز والأسس هي:

1- الاعتماد على الدليل وعدم الإيمان والتسليم لما لم ينصره الدليل؛ ولذا أقام سبحانه الأدلة العقلية البرهانية الكثيرة العظيمة على مسائل الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ. لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾. سورة الأنبياء،21-24. فانظر كيف أقام الدليل وطالب المخالف بالدليل البرهاني فقال:

(1) مفتاح دار السعادة، 63-66..

(2) المرجع السابق 65.

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾. وبين سبحانه وتعالى بالدليل العقلي أن الإله لا يمكن أن يحتاج إلى الطعام؛ لأن من احتاج إلى الطعام احتاج إلى أن يتخلى فقال عز شأنه: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ سورة المائدة،75.

ونهى النبي ﷺ المسلم أن يكون إمعة متابعاً للناس لا يسأل عن هدى، ولا يسترشد بدليل ففي سنن الترمذي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ:(لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا؛ ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا).[1]

2- عدم التقليد والتحذير من متابعة الآباء والأسلاف إذا كانوا على ضلال فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ سورة الزخرف،22-24. فدلت هذه الآية على أن الإنسان الذي لم يتحرر من تبعية الآباء والأسلاف يترك الحق ولو بان له دليله ويتعلق بما عهد عليه آباؤه.

3- التدبر والتفكر فيما يلقى على الإنسان وأن يُعْمِل فيه عقله ويتأمله بفكره؛ لينظر أحق هو فيتبعه، أم باطل فيجتنبه، قال عز شأنه: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ سورة آل عمران، 82. فأنزل إلى البشرية قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ودعاهم إلى تأمله، وأرشدهم إلى مكمن الخلل لو كان فيه فقال﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾، وحيث لا يوجد فيه اختلاف فهو من عند الله، وتأمل هذه الدعوة الكريمة والموعظة البليغة في هذه الآية العظيمة حيث يقول ربنا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سورة سبأ، 46. قال ابن جرير رحمه الله:(قيل في معناها: أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى مثنى، يقول يقوم الرجل منكم

(1) سنن الترمذي، ح 2007، 364/4 وقال: ((حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه))، وقال الشيخ الألباني في تعليقه على الترمذي: ((ضعيف)).

مع آخر فيتصادقان على المناظرة هل علمتم بمحمد ﷺ جنوناً قط؟ ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر فرداً، هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم).[1] ويقول ابن كثير رحمه الله: (يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، مثنى وفرادى أي مجتمعين ومتفرقين، ثم تتفكروا في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بانَ لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً). [2]

4- الاستدلال بالدليل الحسي على الأمر المعنوي الغيبي وهذا ظاهر في الاستدلال على أمر الوحدانية والبعث وغيرها كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة الروم، 28. وقال عز شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة فصلت،39.

5- التجرد وعدم اتباع الهوى وأن يكون رائد الإنسان طلب الحق، والتخلي عن الباطل، لا التعصب لأهواء النفوس قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ سورة المؤمنون، 71. ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ سورة القصص، 50-51.

6- التواضع أمام الحقيقة العلمية وعدم الاعتداد بالنفس، وبما تعلمه من علم؛ وما ذاك إلا لأن القرآن أرشدنا إلى أن الإنسان يخرج من بطن أمه جاهلاً لا يعلم شيئاً قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة النحل،78. وأخبرنا أن العلم الذي يتلقاه الإنسان بل الإنسانية جمعاء هو قليل بالنسبة إلى ما آتاه الله الإنسان من العلم، قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ سورة الإسراء،85. وليقارن الإنسان بين ما تعلمه جيل القرن التاسع

(1) جامع البيان 22/104-105.

(2) تفسير القرآن العظيم 2/271.

عشر الميلادي بما تعلمه الجيل الذي بعده، فإذا علم الإنسان هذه الحقيقة ورسخت في علمه زادته تواضعاً، وأدرك أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، بل دفعه ذلك لطلب المزيد من العلم، فيكون العلم سبيلاً للمزيد منه، ولا يصيب الإنسان بالغرور ويظن أنه قد بلغ الغاية فيقف عن الطلب والتحصيل والاكتشاف. وفي هذا نكتة لطيفة وهي أن الإنسان إذا اغتر بالعلم وفرح به رد الحق الذي لا مرية, فيه قال تعالى مخبراً عن بعض الأمم السابقة:﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾ سورة غافر،83.

ثانياً: موافقة العلم الحديث لما جاء به الإسلام

لئن وقفت الكنيسة موقفاً عدائياً من النظريات العلمية الحديثة[1]، وحكمت بالقتل والسجن على كل عالم يتوصل إلى نظرية أو مكتشف لا تؤيده الكنيسة؛ فقد حث القرآن كما سبق على العلم تعلماً وتعليماً وبين مكانة العلماء عند الله وعند الناس، وتضمن القرآن آيات كثيرة تخبر عن أساس خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان الأول وما تناسل منه من ذرية، وتنبئ عن حوادث ماضية في غابر التاريخ، وتشرح لنا هذه الآيات أيضاً كيف يتكون السحاب، وكيف تتحرك الرياح ... إلى غير ذلك مما حواه القرآن من الأخبار العلمية التي لم يتوصل العلم الحديث إليها إلا في هذا العصر المتأخر؛ فكان السبق للقرآن، وكان التميز له من بين الكتب السماوية السابقة, حيث لم يستطع العلماء المعاصرون حتى من غير المسلمين أن يجدوا فيه خطأً واحداً، وهذا ما اعترف به كثير من الباحثين المنصفين الغربيين، بل هذا الأمر هو الذي قاد الطبيب الفرنسي موريس بوكاي إلى الإسلام حينما قارن بين معطيات العلم الحديث وما تضمنه القرآن والتوراة والإنجيل فتبين له أن القرآن متوافق مع العلم، في حين أثبت أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم يخالفان العلم في المسائل التي تم بحثها، وصنف في ذلك كتابه (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة) وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة. ويقول بوكاي في خاتمة كتابه بعد أن ذكر نتيجة دراسته للتوراة والإنجيل:(إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً وظيفياً مع كل ما سبق، لكن دهشة المسيحيين تعظم حقا عندما يدركون كل هذا... ثم يقول عن القرآن:" إن القرآن وقد

(1) انظر موقف الإسلام والكنيسة من العلم 95 وما بعدها .

أستأنف التنزيلين اللذين سبقاه لا يخلوا فقط من متناقضات الرواية وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل؛ بل يظهر أيضا – لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم – طابعَه الخاص وهو التوافق مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك، وكما أثبتنا يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن).[1]

ثالثا: الإرشاد إلى أصول كثير من الفنون والعلوم

الإسلام ليس منهج عبادة فقط، بل منهج حياة شامل لكل ما يحتاج إليه الإنسان؛ لذا تضمن الدلالة على الأصول التي لا بد منها في الجوانب الرئيسة للحياة، ولن أطيل في هذا وإنما أكتفي بمواضع الشاهد ومنها:

1- الدلالة على أصول العمل في مجال الأنباء والأخبار، فقد أرشد سبحانه وتعالى إلى أصول كثيرة منها التثبت في تلقي الخبر وطلب البينة قال سبحانه وتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ سورة الحجرات،6. ومنها ألاُ يقول ما لم يعلم أو يفتري الكذب ويدعي أنه سمع ورأى, قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ سورة الإسراء، 36. قال ابن جرير وقيل معناه:(ولا تقل ما ليس لك به علم, وقيل: لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله). [2] فالإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، ومنها أن القول على الله بلا علم أعظم من الشرك فقال جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف،33. ومنها التحذير من الكذب عموما، ومن الذي يبلغ الأفاق ويعظم أثره على وجه الخصوص؛ فقد بين النبي ﷺ عقوبة ممتهن هذا النوع من

(1) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة، ص 285.

(2) جامع البيان85/15.

الكذب فقال ﷺ:(وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق).[1]

2- الدلالة على أصول الأخذ بأسباب القوة لئلا تفاجأ الأمة فتؤخذ على حين غرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ سورة الأنفال، 60. ويدخل في إعداد القوة تعلم العلم خاصة العلوم التجريبية التي تعين على امتلاك أعتى آليات الحرب مثل: الدبابات والطائرات والراجمات والطائرات، لأن واجب اتخاذ القوة لا يتم إلا بها وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقال سبحانه وتعالى في هذا الصدد: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ سورة النساء،71. وهذا الأمر الإلهي هو ما تقوم به اليوم مراكز الاستشعار عن بعد.

3- الدلالة على أصول القيادة الإدارية، والآيات والأحاديث التي توضح ذلك أكثر من أن تحصر ولكن نذكر منها ما يقوم به الاستشهاد، فقد أكدت الآيات القرآنية المسؤولية العامة و المسؤولية الفردية، وأن الجميع مطالب بالعمل ومحاسب على النتيجة، قال جل ثناؤه في بيان معرض المسؤولية الفردية: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ سورة الانشقاق،6. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ سورة الزلزلة،7،8. وقال عن المسؤولية الجماعية: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة التوبة،105. وأرشد سبحانه إلى أن العامل لابد أن يتصف بصفتين رئيستين هما: القوة والأمانة، قال عز شأنه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ سورة القصص،26. هذه الأصول جعلت المسلم تابعاً كان أو متبوعاً يستشعر عظم المسؤولية، فلا يعمل عملاً يلحق الضرر بالآخرين؛ لأنه يعلم أنه مسؤول عنه غداً، والفرق بين حضارة المسلمين وحضارة الغرب سؤالان: الغرب دائما يسأل بـ(كيف) والمسلم يسأل دائما بـ(لماذا) والسؤال الأول مدمر؛ لأنه يسأل عن الكيفية ولا يسأل عن

(1) صحيح البخاري، ح 6640، 2585/6.

النتيجة، ولذا أنتج هذا السؤال القنبلة الذرية؛ لأن السؤال كان: كيف نبيد العدو ونبقي ممتلكاته؟! والسؤال الثاني سؤال إيجابي؛ لأنه يسأل عن الغاية قبل الشروع في العمل [1] .

4- الدلالة على أصول الأخلاق فقد أرشد القرآن إلى لبها وجوهرها فقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ سورة الشمس،7-10. وبين النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم أن خيار الناس هم أصحاب الأخلاق الفاضلة فقال ﷺ (إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً).[2] وأرشد القرآن العظيم إلى أن التعامل بالخلق الحسن ينبغي أن يكون مع الناس كلهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ سورة البقرة،83. وجعل النبي ﷺ أن من علامة كمال المرء أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه فقال ﷺ:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). [3]

5- الدلالة على أصول الاقتصاد ذلك أنها لا تقوم حضارة بغير اقتصاد قوي متين، ومن أجل ذلك شرع البيع وحرم الربا فقال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ سورة البقرة،275. ومنع الرسول ﷺ الاحتكار والغش لأن ذلك يقوض دعائم الاقتصاد، وحذر الشارع من الداء العظيم الذي لا يقوم معه اقتصاد ألا وهو الإسراف، فقال جل ثناؤه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ سورة الأعراف،31.

6- الدلالة على أصول الصحة العامة فقد بين النبي ﷺ مشروعية الدواء فقال ﷺ:(تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له معه شفاء إلا الهرم) [4] وأرشد إلى أصل عظيم من أصول الصحة ألا وهو الوقاية من الأمراض قبل وقوعها فقال ﷺ:(من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر). [5] وفي رواية مسلم: (من أكل

([1]) وعود الإسلام ، 44.

(2) المرجع السابق؛ ح 5688، 2245/5، وصحيح مسلم، ح 2321، 1810/4.

(3) صحيح البخاري، ح 1، 14/13، وصحيح مسلم، ح 45، 67/1.

(4) سنن ابن ماجه 1137/2 قال البوصيري في مصباح الزجاجة187/2: ((إسناده صحيح ورجاله ثقات))، وصححه الألباني في تعليقه على السنن، وصحيح ابن حبان 426/13 وقال: ((قال سفيان: ما على وجه الأرض اليوم إسناد أجود من هذا))، والحاكم في المستدرك 209/1 وقال: ((هذا حديث صحيح ولم يخرجاه))، وعلق الذهبي في التلخيص بقوله: ((صحيح)).

(5) صحيح البخاري، ح 5130، 2075/5.

سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسي). [1] وفي هذا بعدٌ وقائي في الاحتياط من الأمراض والتوقي منها قبل وقوعها، ومع هذا الاحتياط فقد منع النبي ﷺ من دخول البلاد الموبوءة فقال:(إذا كان الطاعون بأرض فلا تهبطوا عليه، وإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه). [2] وحذر من ورود المريض مرضاً معدياً على الصحيح فقال ﷺ:(لا يوردن ممرض على مصح). [3]

كما أمر بأخذ الاحتياط اللازم في التوقي من أسباب التلف والضرر فقال ﷺ:(أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب). [4] ففيه تنبيه إلى اتباع وسائل السلامة في التعامل مع المصابيح التي تستعمل الشمع أو الغاز وما في حكمها من المدافئ، وفيه التنبيه إلى إغلاق الأبواب، وتغطية الطعام والشراب لئلا تصيبها الهوام والجراثيم والميكروبات.

ولو أردنا أن نقف مع كل علم وفن لنستنبط أصوله لطال بنا المقام، ولكن يكفي أننا ذكرنا أصول العلم والصحة والاقتصاد والإعلام والأخلاق والقوة.

المطلب الثاني الدين

وهذا المطلب من أعظم المطالب بل هو أعظم مقوم من مقومات الحضارة بل أعظم مقوم من مقومات الحياة، ولذا لا توجد أمة بغير دين، وهذا يدل على أن الدين أمر فطري، والإسلام جاء لإشباع هذا الأمر الفطري، وكان هو الدين الصحيح كما سترى، ويندرج تحت هذا المطلب مسائل كثيرة وهي:

المسألة الأولى التعريف

تعريفه لغة واصطلاحاً، أما تعريفه لغة فهو كما قال الفيروز أبادي:

الدِين بالكسر الجزاء، وقد دِنته ديناً، وقد دنت به، والعادة والعبادة والمواظِب من الأمطار، والذل والحساب والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير. والديان القهار

(1) صحيح مسلم، ح 2047، 1618/3.

(2) صحيح البخاري 30/7، والأحاديث المختارة، 161/3، وقال إسناده صحيح.

(3) صحيح البخاري، ح 5437، 2177/5، وصحيح مسلم، ح 2221، 1743/4.

(4) صحيح البخاري، ح 5301، 2132/5.

والقاضي والحاكم والسائس والحاسب والمجازي الذي لا يضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر. ومنه قوله تعالى ﴿ أئنا لمدينون﴾ سورة الصافات، 53 أي لمجزيون محاسبون.[1]

وأما تعريفه اصطلاحا فقد:قال الراغب في مفرداته:(الدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة).[2]

وقال الفيروزأبادي: (الدين: اسم لجميع ما يتعبدالله عز وجل به).[3]

وقد عرف بعض علماء الإسلام الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح في الحال والفلاح في المآل". وقال دراز أيضاً ويمكن تلخيصه بأن نقول:(وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات)[4] وعرفه ابن الكمال فقال: (وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول).[5]

هذه بعض تعريفات الدين عند علماء المسلمين، أما تعريفات علماء الغرب فقد تنوعت واختلفت باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم وأديانهم وفنونهم، فتجد تعريف علماء الاجتماع يتخلف عن تعريف الفلاسفة، ويخالف أيضاً تعريف أصحاب الفكر، وسنستعرض جملة من تعاريفهم له لنرى مدى التباين بينهم، فقد ورد تعريفه في المعجم الفلسفي بأنه(مجموعة من معتقدات وعبادات مقدسة يؤمن بها جماعة معينة لسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان، وللعقل فيه مجال)، [6] وعرفه علماء الاجتماع الغربيون بأنه: (نظام اجتماعي يقوم على وجود موجود أو أكثر، أو قوى فوق الطبيعة، ويبين العلاقات بين بني الإنسان وتلك الموجودات وتحت أية ثقافة معينة تتشكل هذه الفكرة لتصبح نمطاً أو أنماطاً اجتماعية أو تنظيماً اجتماعياً، ومثل هذه الأنماط أو النظام تصبح معروفة باسم الدين). [7]

---

(1) القاموس المحيط، مادة دين،1/ 1546.ومختار الصحاح 99/1.

(2) المفردات ص 175.

(3) القاموس المحيط، مادة دين،1/ 1546.

(4) الدين، ص 33 .

(5) انظر التعريفات 344/1. وانظر أبجد العلوم 337/2. وانظر حواشي الشرواني،21/1.

(6) المعجم الفلسفي، ص 86.

(1) معجم العلوم الاجتماعية، ص 270.

وقد أورد د. أحمد عجيبة عدداً من تعريفات الدين, وقسمها إلى ثلاث مجموعات تبعا للمنهج المستخدم في التعريف، وأورد ضمن كل مجموعة عددا من التعاريف نختار واحداً من كل مجموعة، لأن الهدف الاستشهاد والعرض لا المناقشة والرد.

التعريف الأول وهو من تعريفات المنهج الباطني: (هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق، وواجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه).

التعريف الثاني وهو من التعريفات القائمة على الحدس: (رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة ما في اشتغال العقل مما قد يشل قوى الفرد ويخل تماسك المجتمع).

التعريف الثالث وهو من تعريفات المنهج المقارن: (توجيه الإنسان سلوكه وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ويطيب له أن يشعر باتصاله بها). [1]

وحينما تستعرض هذه التعريفات الغربية تجد الاختلاف التام بينها، ومرد ذلك إلى تنوع أديان أصحاب هذه الأقوال، وتعدد مشاربهم الثقافية والحضارية ما بين يونانية ورومانية ونصرانية وفلسفات حديثة حتى تعذّر عليهم الاتفاق على تعريف معتبر؛ ولذا قال جيمس فريزر: (وأغلب الظن أنه لا يوجد موضوع في العالم اختلفت فيه الآراء مثلما اختلفت حول طبيعة الدين). [2]

وقد أورد الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه الدين جملة من التعاريف ونظر في العناصر المكونة لها وخرج منها بالحد التام لماهية الدين فقال:(الدين هو الاعتقاد بوجود ذات – أو ذوات غيبية – علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد)[3] وبعبارة موجزة هو:(الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة) هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول:(هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك الذات الإلهية، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها).[4]

ويرجع رؤوف شلبي الاختلاف حول تعريف الدين إلى ما يلي:-

- كثرة المواريث المظلمة فيما يتعلق بالدين الذي توارثوه عن الأمم الوثنية القديمة.

---

(1) دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 21-27.

(2) الغصن الذهبي ص 217.

(3) الدين ص 52.

(1) المصدر السابق، ص 52.

- عدم وجود نصوص في كتبهم الدينية توضح مفهوم الدين.
- عدم وضوح عقائدهم التي ورثوها في أذهانهم.
- عدم كمال دائرة الفروض العقلية التي وضعوها لمناقشة الدين والتدين.
- فساد المقاييس العلمية التي وضعوها لتفسير الدين. [1]

ويمكن أن يضاف إليها:

- عدم معرفتهم للدين الصحيح فجاءت تعريفاتهم منطلقة من أديانهم .
- عدم تفريقهم بين الدين الإلهي المنزل والأديان البشرية الوضعية.

وحينما تقارن بين تعريفاتهم وتعريفات العلماء المسلمين تجد أن كلاً قد عرّف ما عرف وعهد، فالعالم المسلم عرف الدين الصحيح المنزل من عند الله فعرفه كما آمن به وكما عهده، والعالم الغربي الذي لم يتفيأ الدين الصحيح وإنما عاش متنقلاً بين فلسفة وضعية ودين محرف جاء تعريفه لِمَا عجز عن فهمه فضلاً عن الإيمان به.

المسألة الثانية: ضوابط الدين الصحيح:

وبعد بيان تعريف الدين لابد أن نتناول الضوابط التي نميز بها بين الدين الصحيح والدين المحرف أو الدين الذي وضعه البشر وهذه الضوابط هي:-

1- أن يكون الدين منزلاً من عند الله بواسطة ملك من الملائكة على رسول من رسله ليبلغه إلى عباده، وعلى هذا فكل دين يأتي به شخص ويدعو إلى عبادة نفسه فهو دين باطل لا محالة.
2- أن يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالعبادة وتحريم الشرك والوسائل المفضية إليه.
3- أن يكون متفقاً مع الأصول التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين .
4- أن يتضمن الهداية إلى شرع الله وتعريف الإنسان بالحقائق الكبرى المتعلقة بالله سبحانه وتعالى وبيان صفاته وأسمائه وأفعاله، وبيان مافي هذا الكون مما يتعلق بالغيب الماضي والآتي, وحقائق النفس البشرية وما يصلحها ويزكيها أو يشقيها.
5- ألا يكون متناقضاً ولا مختلفاً بعضه مع البعض الآخر فلا يأمر بأمر ثم ينقضه بأمر آخر، ولا يحرم شيئاً ثم يبيح مثله من غير علة.

---

(2) يا أهل الكتاب ص 48، نقلا من دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 31.

6- أن يضمن الدين ما يحفظ على الناس دينهم وأنفسهم وأعراضهم وعقولهم وذرياتهم بما يشرع من الأوامر والنواهي والزواجر والأخلاق التي تحفظ هذه الكليات الخمس.

7- أن يكون الدين رحمة للخلق من ظلم أنفسهم ومن ظلم بعضهم لبعض.

8- أن يدعو إلى مكارم الأخلاق والأفعال.

9- أن يحقق السعادة لمن آمن به.

10- أن يدل على الحق ويحذر من الباطل، ويرشد إلى الهدى وينفر من الضلال، وأن يدعو الناس إلى صراط مستقيم . [1]

المسألة الثالثة الحاجة إلى الدين:

وبعد البسط لأهم الضوابط التي تميز بين الدين الصحيح والدين الباطل فيحسن أن نتبين هل الإنسان محتاج إلى الدين الصحيح أم أنه ترف فكري يمكن الاستغناء عنه؟!

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نستصحب معنا حقيقة الإنسان، ومادة خلقه، والغاية من خلقه. فالإنسان مخلوق من روح وطين، ومكون من جسد وروح، ويعيش في مجتمع تتنازعه أهواء المجموعة، ومطالب بتكاليف إلهية لابد أن ينال جزاءه عليها إن أحسن أو أساء.

إنك حينما ترى الإنسان في كل زمان ومكان تجده مخلوقاً متديناً فلا يعيش الإنسان بغير دين، وهذا ما يجعل كثيراً من الدراسات تؤكد احتياج الإنسان إلى الدين، فحاجته إليه أعظم من حاجته إلى الطبيب والغذاء والشراب كما يقول ابن القيم رحمه الله. [2]

أما أسباب حاجته إلى الدين فكثيرة جداً وقد تنوعت إجابات الباحثين حول تعدادها وذكرها، لكنها مجمعة على هذه الحاجة وتنوعها، يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: (إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية). [3]

ويبن أرنولد توينبي: (إن جوهر الدين ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاته، فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية). [4]

---

(1) الإسلام أصوله ومبادئه، للباحث، ص 75-59. وقد بسطتُ فيه هذه الضوابط.

(2) مفتاح دار السعادة 2/ 383.

(3) الدين، ص 82..

(4) دراسات في الأديان القديمة، ص 43.

وينقل د. دراز لنا إجماع مؤرخي الأديان على هذه الحقيقة فيقول:(إن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بله أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها).[1]

ويقول الدكتور القرضاوي: (إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية، إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة، وسر الوجود، وأعمق أعماق الإنسان. وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز – غير المخل– نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان ثم يبين أوجه الحاجة إلى الدين وهي بحسب رأيه كما يلي:–

الأول: حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود وتتلخص فيما يلي:

1– حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق. أول ما تنبثق. من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله، أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شغلت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يشفي, فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

(أ) يقول الإنسان في نفسه: من أين جئت وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وجدت وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومن هو؟ وما صلتي به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، هل وجد وحده أم أوجده خالق مدبر؟.

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة... وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد" أرحام تدفع، وأرض تبلع" ولا شيء بعد ذلك؟ (ج) ثم لماذا وجد الإنسان؟ لماذا أعطي العقل والإرادة وتميز عن سائر الحيوان؟ لماذا سخر له ما في السموات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام – ثم ينفق كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟ – ما ذكرناه

(1) الدين، ص 38.

من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً، فالإنسان ليس عقلاً فقط، كالأدمغة الإلكترونية، إنما هو عقل ووجدان وروح، هكذا تكونت فطرته، ونطقت جبلته. فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعراً بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله؛ فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

3- وثمة حاجة أخرى إلى الدين: حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها، وآلامه بها... حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سند متين يعتمد عليه، إذا ألمت به الشدائد، وحلت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف، هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضراء، وحين البأس.

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية، فتشيع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يغني عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا ملك المشرق والمغرب.

4- وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم، أو يكافئهم . . وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يفرط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادية العاجلة.ولا يقال: إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإن القوانين لا تخلق باعثاً، ولا تكفي ضابطاً، فإن الإفلات منها ممكن، والاحتيال عليها ميسور، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها. لا بد من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا: الوازع الذاتي، لا بد من

الضمير، أو "الوجدان" أو "القلب" . سمه ما شئت . فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسد كله. [1]

وإضافة إلى ما ذكره القرضاوي من حاجة إلى الدين فقد شاركه في جل ذلك د. أحمد على عجيبة وزاد عليها جوانب أخرى منها وقد قسمها إلى حاجة الفرد إلى الدين وحاجة المجتمع إليه أيضاً ومما ذكر:-

- أن الفرد محتاج إلى الدين لأنه مجبول على التدين ولا يستطيع الانفكاك عنه ويحتج لذلك بقول الفيلسوف:"أوجست سباتييه" في كتابه "فلسفة الأديان": "لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقاً للإجابة عنه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يقهر المسألة ولا يحلها، وأن ضرورة التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست أقل تشبثاً مني بأهداب الدين". [2] وهذا الذي عبر عنه هذا الفيلسوف بأنه (لازم ذاتي) هو عين ما عبر عنه التنزيل الإلهي بالفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾سورة الروم،30.
- أن الإنسان يعيش في صراع بين متطلبات حياته ورغبات البيئة من حوله ولا يمكنه التغلب على هذا الصراع إلا بالعقيدة الدينية التي تنظم وتؤطر هذا الصراع.
- أن الدين الصحيح هو مصدر القيم والأخلاق والمثل العليا والسلوك الأخلاقي فيستمد منه الإنسان قيمه وعقائده ومبادئه القائمة على الإيمان بالله.
- أن من أكبر الأدلة وأقواها على حتمية التدين وضرورته أن هؤلاء الذين يحاولون الانفكاك والتخلص من الدين قد باءت محاولاتهم بالفشل والبوار بل تحولت إلى النقيض من ذلك, يقول مراد هوفمان سفير ألمانيا السابق في المغرب:(إنه لأمر مزعج، قلة من يهمهم شأن ما

(1) شبكة سلسبيل الإسلامية. موضوع الحاجة إلى الدين، مقال لدكتور يوسف القرضاوي .

(2) دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 66.

أصاب مجتمعاتهم في الغرب... فقدان المعنى، وغياب أي هدف أسمى في الحياة، مع ازدياد الفراغ نقص روحي ينذر بتحويل الوجود الفردي إلى مهمة يائسة عديمة المعنى- حقا كما قال برافيس منصور: الإلحاد يجبي ضريبته من كل نفس في الغرب)[1]

ثم استشهد د. عجيبة بدراسة قام بها (تالكوت بارسونز) تأكد له فيها حاجة الإنسان إلى الدين بناء على خصائص الوجود الإنساني ومن هذه الخصائص:

1- خصيصة القلق التي يحياها الإنسان خوفاً من الفشل والإحباط عندما يقوم بعمل ما، والدين يمده بالفأل واليقين ويمنحه الطمأنينة على ما يقوم به.
2- خصيصة العجز تجاه ما يريد وما يواجه من ضغوط فهذا العجز يفسد عليه سعادته ورضاه، والدين الصحيح يصله بأسباب السماء فيتغلب على العجز والقنوط.
3- خصيصة الندرة وهي أن ما يتاح في هذا الكون من فرص ومعايش وحظوظ لا يتحقق بقدر متماثل لجميع البشر؛ وهو ما يجعل الإنسان يعيش حالة من الهم والحزن على ما فاته وما أصابه، ويعاني من الخضوع لغيره في طلب حقه ونصيبه، ولا يسليه ويقيم في نفسه الموازين الحقيقية للمكاسب في هذا الكون ويملأ نفسه قناعة ورضا إلا الدين الصحيح.[2] وهو ما جاء به الإسلام من الإيمان بالقدر قال جل ثناؤه:﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ سورة الحديد،22، 23.

ويضيف ابن القيم رحمه الله جانباً مهماً من جوانب حاجة الإنسان إلى الدين ألا وهو حاجته إلى القوة العلمية النظرية، والقوة العلمية الإرادية، فيقول:(للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة علمية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة

(1) الإسلام عام 2000، ص 41. وقد أسلم عام 1980م ولكونه دبلوماسيا عاش في بعض البلاد الإسلامية سفيرا لبلده وتنقل في دول إسلامية أخرى، وفر له ذلك الاطلاع على القرآن الكريم حتى اعتنق الإسلام وأدرك أنه الحقيقة التي كان يبحث عنها .

(1)

العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، معرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، معرفة نفسه ومعرفة عيوبها؛ فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية... واستكمال القوة العلمية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه وتقصيره في أداء حقه ... ولا سبيل إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليها أولياءه وخاصته). [1] وتابع ابن القيم في التوكيد على أهمية هذا الجانب كل من د. محمد عبدالله دراز و د. أحمد عجيبة. [2] ومما قال دراز في ذلك: (التدين عنصر ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته. ثم هو عنصر ضروري لتكتمل فيه قوة الوجدان؛ فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر والتواضع ...تجد في الدين مجالاً لا تُدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معينه. وأخيراً هو عنصر ضروري لتكميل قوة الإرادة؛ يمدها بأعظم البواعث والدوافع، ويدرّعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط) [3] ويقول دراز أيضاً بعد أن استعرض حاجة العقل إلى الدين: (وجملة القول إن العقول السامية تشرئب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الحائلة الزائلة، إلى حقيقة كلية أزلية أبدية، حقيقة لا يحويها شيء من العلوم والمعارف، ولكنها تتشوف إليها كل العلوم والمعارف، وتلك هي التي تفردها الأديان الصحيحة بالتقديس... إن هذا التشوف الغريزي إلى الأزلي الأبدي، وهذا الطلب الحثيث للكلي اللانهائي، له دلالتان عميقتان: إحداهما: دلالة على مطلوبه لا كدلالة الأثر على صانعه. وثانيتهما: دلالته على أن في الإنسان عنصرا نبيلا سماويا خلق للبقاء والخلود، وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حينا، قانعا بالدون من الحياة الجثمانية المتحطمة...). [4]

المسألة الرابعة: مصدر الدين:

تختلف الآراء كثيراً وتتشعب في هذا الموضوع، وهي إن اختلفت تُرْجِع الدين إلى مصدرين هما:

---

(1) الفوائد، ص 18-19،

(2) الدين، ص 98، ودراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 67.

(3) الدين، بتصرف يسير، ص 97-98.

(4) المرجع السابق، بتصرف يسير، ص 97-98.

المصدر الأول: الوحي الإلهي من الله سبحانه وتعالى خالق الكون وموجده، وعلى هذا فالدافع للتدين هو الفطرة التي فطر الناس عليها. وهذا الاتجاه هو ما عليه أصحاب الأديان الكبرى الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام. ولم يتبق لأتباع اليهودية والنصرانية من دليل على هذا إلا أسفارهم المعتبرة عندهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهو تراث لم يسلم من النقد العلمي الذي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك في تحريف هذا التراث وضياع أصوله، أما المسلمون فأدلتهم على أن مصدر دينهم الوحي الإلهي كثيرة منها:-

1- القرآن الكريم الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله، وبقاء هذا التحدي قديماً وحديثاً ومستقبلاً.
2- ما يقدمه القرآن من عقائد إيمانية راسخة لا تقبل النقض والإبطال، وقوانين اجتماعية وقواعد نفسية وأسس حضارية لا يملك الوصول إليها إلا عالم محيط خبير بأسرار الكون وخفايا النفس وتاريخ الماضي والحاضر والمستقبل.
3- صدق صاحب الرسالة قبل البعثة وبعدها فلم يجرب عليه كذب قط.
4- عدم انقطاع الصلة بين فترة تلقي القرآن وبين حفظه وتدوينه وتواتره من غير تحريف أو تبديل بعكس كتب الديانات السابقة. [1]
5- موافقة العلم المعاصر لما تضمنه القرآن من حقائق علمية عن الكون والإنسان والتاريخ.[2]
6- شهادة الذين أسلموا من اليهود والنصارى وغيرهم من غير المسلمين على أن هذا الدين العظيم (الإسلام) هو الدين الحق وهو الذي بشر به الأنبياء السابقون وهو الموافق لما جاؤوا به أيضا، وهو الموافق للفطرة والمحقق لمتطلبات النفس البشرية.

المصدر الثاني: فكر الإنسان، والباعث إليه فكره وحاجته وظروفه الطبعية وبيئته، فيعتنقه كثير ممن يؤمن بضرورة خضوع كل شيء للمنهج العلمي مدعين أن المنهج العلمي في نظرهم لم يوصلهم إلى شيء وراء الطبيعة، وما لم يصل العلم إلى إثباته فهو في نظرهم عدم وباطل، ولذا راحوا

(1) الإنسان في ظل الأديان، ص 26-27.

(2) انظر مزيد توضيح لهذا الأمر في المطلب المتعلق بالعلم في هذا البحث.

يلتمسون علة ظهور الأديان في كل المجتمعات البشرية في شيء غير الوحي وما وراء الطبيعة، ولم يكن أمامهم إلا الطبيعة نفسها بما فيها الإنسان, ومن هنا تفرعت وتعددت آراؤهم في أصل الإنسان ثم في كيف ظهر الدين،[1] ومع كثرة هذه الدراسات وتنوعها ظلت حائرة في هذا الباب تخْبطاً خبط عشواء، فلم تصل إلى نتيجة ولم تقطع الشك باليقين، ولم تيأس من البحث رغم طول مدته، ولم تُلقِ أداة البحث إعلاناً للعجز .

فالحضارة لا تقوم إلا على دين صحيح يحقق للمتنعمين في ظلالها أهدافهم الفردية والاجتماعية والدينية والسياسية والفكرية العلمية والعملية... ولذا قال الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية كولج في إحدى خطبه: (إن البلاد في حاجة إلى التدين أكثر مما هي عليه الآن، وإني لا أتصور دواء أنجح وأكثر تأثيراً من الدين في إزالة المساوئ والشرور التي تلون بها شعبنا، فليس في الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرض للزوال، كما أنه ليس هناك جزاء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية، وأساس الدين النصيحة، فلا سبيل إلى دوام الحضارة المضيئة ما دمنا محرومين من الإيمان). [2]

والدين الصحيح الذي تقوم به المجتمعات كما أسلفت هو الإسلام؛ ولذا يقول (ليو بولد فايس) محمد أسد النمساوي الأصل: (يعتبر الإسلامُ من دون سائر الأديان السامية جميعا روحَ الإنسان ناحية واحدة من شخصية لا ظاهرة مستقلة، ومن ثم فإن نمو الإنسان الروحي، في نظر الإسلام مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحي طبيعته الأخرى؛ إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهي ليست نتيجة أي (خطيئة أولى) – ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام – بل قوى إيجابية وهبها الله للإنسان، فيجب أن يتقبلها وأن يفيد منها بحكمة على أنها كذلك، ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست في كيف يكبت مطالب جسده، بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة.

إن جذور هذا التوكيد الإيجابي للحياة الإنسانية إنما توجد في النظرة الإسلامية القائلة بأن الإنسان مفطور على الخير، بخلاف الفكرة المسيحية القائلة بأن الإنسان يولد مكسواً (بالخطيئة الأولى) أو

(1) المرجع السابق، ص27.

(2) الدين والعلم،ص 173نقلا عن دراسات في الأديان، ص 77.

العقيدة الهندوسية القائلة بأنه منحط ونجس أصلاً، ويجب أن يتعثر عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو الكمال، بخلاف القرآن الكريم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ أي في حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا عن طريق السلوك السيئ من بعد ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [1]، سورة التين4-6.

المطلب الثالث: الإتقان

تعريفه: قال ابن منظور: أتقن الشيء أحكمه وإتقانه إحكامه، والإتقان الإحكام للأشياء، وفي التنزيل العزيز ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سورة النمل،88. ورجل تَقِنٌ متقن للأشياء حاذق، ورجل تقن وهو الحاضر المنطق والجواب، قال أبو منصور: الأصل في التقن ابن تقن هذا (إشارة إلى رجل ممن مضى)، ثم قيل لكل حاذق بالأشياء تقن، ومنه يقال أتقن فلان عمله إذ أحكمه، وفي ترتيب القاموس: أتقن الأمر أحكمه، والتقِن بالكسر الطبيعة، والرجل الحاذق.[2]

ونسب إلى الأحنف قوله:

وما عليك أن تكون أزرقا إذا تولى عقد شيء أوثقا [3]

ويحسن الاستشهاد في مثل هذا الموضع بقول عليﷺ:(الناس أبناء ما يحسنون، وبقوله: قيمة كل امرئ ما يحسنه).

ويقول الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب [4]

فلما تأدبوا بأدب القرآن تغيرت معاييرهم ومقاييسهم فأصبح العربي الذي كان لا يعدل بالنسب والحسب شيئاً يعتبر الإحسان واكتساب الآداب والإتقان هي القيمة الحقيقة للإنسان.

إذاً الإتقان هو الإحكام، سواء كان في الأمور المادية أو في الأشياء المعنوية، ومادام أنه كذلك فلا غنى عنه في أي أمر مادي أو معنوي، ولا تقوم حضارة ولا تزدهر صناعة إلا به، وتولي المؤسسات الصناعية والعلمية هذا الأمر عناية بالغة؛ ولذا وضعت المواصفات العالمية المتعارف عليها لكل منتج سواء كان منتجاً فكرياً كالمناهج التعليمية، أو كان منتجاً مادياً كسائر المصنوعات، وأصبحت هذه

---

(1) الطريق إلى الإسلام، ص 152.

(2) لسان العرب،73/13. و القاموس المحيط، مادة تقن1527/1.

(3) كشف الخفاء 1 /286.

(4) فيض القدير 4 /110 .

المواصفات من الشهرة بمكان بحيث إن المنتجين والمصنعين يحرصون على أن تتوافق منتجاتهم مع هذه المواصفات، ويدونون على منتجاتهم المواصفات التي تم تطبيقها فيه.

والإسلام وهو الرسالة الخاتمة لم يهمل هذا الجانب العلمي المؤثر، فجاءت النصوص الشرعية مقررة هذا الأمر، وداعية إليه، ومخبرة أن الله قد أحسن وأتقن خلق مصنوعاته، وندب البشر إلى إتقان أعمالهم، وبين أنه يحب ذلك من عباده، فقال سبحانه وتعالى مخبراً عن فعله:﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سورة النمل،88. قال ابن عباس ﷺ في معنى الآية: أحكم كل شيء، وقال مجاهد قوله ﴿ الذي أتقن كل شيء﴾ قال: أوثق كل شيء وسوى. وقريباً من هذا المعنى نقل عن قتادة رحمه الله [1] وقال ابن كثير رحمه الله: (أي أتقن كلما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع). [2]

وقال ابن القيم رحمه الله في معرض بيان التناسب بين شرعه وخلقه، وأن الله كما خلق خلقه بغاية الإتقان والإحكام، فكذلك شرعه في غاية التناسب والحكمة فقال: (إن من شَرَعَ هذه العقوبات ورتبها على أسبابها جنساً وقدراً فهو عالم الغيب والشهادة، وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، ومن أحاط بكل شيء علماً، وعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وأحاط علمه بوجوه المصالح دقيقها وجليلها وخفيها وظاهرها ما يمكن اطلاع البشر عليه وما لا يمكنهم، وليست هذه التخصيصات والتقديرات خارجة عن وجوه الحِكَمِ والغايات المحمودة، كما أن التخصيصات والتقديرات الواقعة في خلقه كذلك، فهذا في خلقه وذاك في أمره، ومصدرهما جميعاً عن كمال علمه وحكمته ووضعه كل شيء في موضعه الذي لا يليق به سواه ولا يتقاضى إلا إياه، كما وضع قوة البصر والنور للباصر في العين، وقوة السمع في الأذن، وقوة الشم في الأنف، وقوة النطق في اللسان والشفتين، وقوة البطش في اليد، وقوة المشي في الرجل، وخص كل حيوان وغيره بما يليق به ويحسن أن يعطاه من أعضائه وهيئاته وصفاته وقدره، فشمل إتقانه وإحكامه لكل ما شمله خلقه، كما قال تعالى::﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سورة النمل،88.وإذا كان سبحانه قد أتقن خلقه غاية الإتقان، وأحكمه غاية الإحكام؛ فلأن يكون أمره في غاية الإتقان والإحكام أولى وأحرى، ومن لم يعرف ذلك مفصلاً لم يسعه أن ينكره مجملاً). [3]

---

(1) جامع البيان21/20.

(2) تفسير القرآن العظيم 379/3.

(3) إعلام الموقعين 120/2.

وقد ندب النبي ﷺ إلى إتقان العمل وحث عليه، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله قال:(إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه).[1] ولما خسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن النبي ﷺ فقال الناس هذا لموت إبراهيم! فقال رسول الله ﷺ:(لا يخسف لموت أحد ولا لحياته) ورأى رسول الله ﷺ فرجة في القبر بين اللبن فأمر أن تسد فقال: إن العبد اذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه).[2] فهذه فرجة في اللبن في داخل القبر، لا تضر الميت ولا تنفعه، ومع ذلك لم يقرهم النبي ﷺ على تركها دون أن تغلق، وأمر أن تأخذ حقها من الإتقان، ولما سأله الصحابة رضوان الله عليهم هل تنفع الميت أو تضره؟ قال لهم ما قال.

وقال المناوي رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: (إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم أيها المؤمنون عملاً أن يتقنه أي يحكمه. كما جاء مصرحاً به في رواية العسكري، فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعدد مثلا أن يعمل بما علمه الله عمل إتقانٍ وإحسانٍ بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة، كما ذكر أن صانعا عمل عملاً تجاوز فيه ودفعه لصاحبه فلم ينم ليلته كراهة أن يظهر من عمله عملاً غير متقن فشرع في عمل بدلاً منه حتى أتقن ما تعطيه الصنعة، ثم غدا به لصاحبه فأخذ الأول وأعطاه الثاني فشكره، فقال لم أعمل لأجلك بل قضاء لحق الصنعة كراهة أن يظهر من عملي عمل غير متقن، فمتى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة فقد كفر ما علمه الله، وربما سلب الإتقان).[3]

وبهذا المطلب (الإتقان) نكون قد أتينا على نهاية هذا المبحث المتعلق بالعلم وما يؤول إليه ويعتمد عليه، وسيتجه البحث في المبحث التالي وجهة أخرى تعتبر تتمة له من حيث الجوهر، وإن كانت مغايرة له من حيث التفاصيل .

---

(1) المعجم الأوسط، 275/1. ومسند أبي يعلى، 349/7، وشعب الإيمان، 334/4، ومجمع الزوائد، 98/4، وانظر كشف الخفاء، 286/1، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 106/3 .

(2) المعجم الكبير،306/24.

(3) فيض القدير 2 /286 – 287.

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية

تتناول القيم في هذا المبحث موضوعاً طالما شغل الدارسين والمفكرين وعلماء الاجتماع ألا وهو موضوع الاجتماع، فالقيم التي ينتظمها هذا المبحث تعتبر أسس هذا العلم وقواعده، كما تؤكد على أن هذا الدين الخاتم قد أحاط بكل ما يحتاج إليه الأحياء وتحتاج إليه الحياة، وقد حاولت أن أتناول أبرز القيم المتعلقة في هذا الموضوع وإن كنت لا أستطيع الإحاطة بما يتعلق به، كما ذكرت ذلك في المقدمة، ويدخل تحت هذا المبحث سبعة مطالب هي:

المطلب الأول: الوسطية

التعريف اللغوي: جاء في ترتيب القاموس الوسط: من كل شيء أعدله، [1] وقال ابن منظور: وسط الشيء ما بين طرفيه، ووسطٌ أي خيار، و وسط الشيء وأوسطه أعدله، ورجل وسط ووسيط حسن. وقال في المفردات: وسط الشيء ما له طرفان متساويا القدر. [2]

إذاً الوسط هو العدل والخيار، وهو التوسط بين الطرفين فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط.

وبما أنه بهذه المثابة التي لا تستقيم أمور الأمم والأفراد إلا عليها؛ فقد جاء هذا الدين الحنيف وسطا عدلاً، وأمر بالتوسط وحث عليه، وبين أن الهلاك كل الهلاك في الابتعاد عن التوسط سواء كان هذا الابتعاد إلى ناحية التشدد أم إلى ناحية التفريط.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بأنها وسط فقال عز من قائل: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ سورة البقرة، 143. وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية:(إن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين؛ فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها).[3]

---

(1) لسان العرب مادة وسط، 7/ 427،430. وترتيب القاموس نفس المادة.

(2) المفردات، 522.

(3) جامع البيان 6/2.

وهذا الدين الذي أمر بالتوسط جعله الله طريقاً مستقيماً لا عوج فيه يوصل إلى مراد الله من خلقه، ويوصل الخلق إلى أسمى غاياتهم، قال جل ثناؤه:﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة الأنعام،153. فهو يوصلهم إلى غاياتهم الدنيوية، ويحقق لهم السلامة الأخروية قال الله جل الله في علاه: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ سورة النساء،175. فلهم الرحمة في الدنيا والآخرة كما أن لهم الرحمة والجنة في الآخرة.

فمن الوسطية التي أمر بها هذا الدين ألاُ يزيد العبد في التعبد على ما شرعه الله له؛ لئلا يفضي إلى الإحداث في الدين، ولئلا يكلف المرء نفسه فوق طاقته، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن حميد ابن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها! فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني).[1]

ودخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: ((لا؛ حُلُّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد))[2].

ومن الوسطية في هذا الدين أن يجمع المرء بين الدين والدنيا، جمعاً متوازناً يعطي لكل ذي حق حقه، فلا يطغى جانب التعبد فيضيع العبد نفسه ويعيش عالة على الآخرين، ويضيع حقوق من تجب عليه رعايته كالزوجة والوالد والولد، ولا يطغى جانب الدنيا على الدين فينشأ المرء عبداً للمال لا يعرف ربه ولا يستغفر ذنبه، قال تعالى مرشداً إلى هذا التوازن بين الناحيتين: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ سورة القصص،77. قال ابن جرير رحمه الله:(يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل قوم قارون له لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بالعمل

(1) صحيح البخاري،ح4776،5/1949، وصحيح مسلم،ح 1401، 2\1020.

(2) صحيح البخاري ح1109، 1/386، وصحيح مسلم ح784، 1/541 .

فيها بطاعة الله في الدنيا. ثم أورد قول الحسن رحمه الله في معنى قوله:﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال الحسن ما أحل الله لك منها فإن لك فيه غنى وكفاية).[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة النور، 36-38. فهؤلاء لا تشغلهم التجارة عن الصلاة ولا تمنعهم من إيتاء الزكاة. وقال قتادة: (كان القوم يتبايعون ويتّجرون ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله)[2] وقال ابن كثير رحمه الله: (لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق).[3]

وكما أمر الله بالتوازن فقد أذن بالتمتع بمتاع الحياة الدنيا مما أحله الله من الملابس الجميلة والمآكل الطيبة، بل أمر الله المؤمنين إذا جاؤوا إلى المساجد أن يلبسوا أحسن ثيابهم قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف، 31-32.

وكان النبي ﷺ يتفقد أصحابه رضي الله عنهم فإذا رأى على بعضهم مخالفة لهذا الاعتدال وجه إلى ما هو خير, فعن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ وهو قشف الهيئة فقال له رسول الله ﷺ هل لك مال؟ قال نعم. قال من أي المال؟ قال من كل المال من الخيل والإبل والرقيق، قال: (فإذا آتاك الله مالا فلير عليك) [4] . وكان النبي ﷺ يرشد أصحابه إلى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال:(كلوا واشربوا وتصدقوا في غير

---

(1) جامع البيان 20\111-112.

(2) صحيح البخاري 2 /726.

(3) تفسير القرآن العظيم 3 /296 .

(4) سنن النسائي 181/8 وصححه الألباني في تعليقه على السنن، وصحيح ابن حبان 234/11، والمستدرك على الصحيحين 76/1 وقال الحاكم: ((هذا حديث صحيح الإسناد))، وقال الذهبي في التلخيص: ((صحيح الإسناد)).

سرف ولا مخيلة؛ إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده).[1] وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال:(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس).[2]

فالإسلام جاء بالتوسط بين متطلبات الجسد ومقومات الروح، فليس ديانة روحانية فقط كالديانات الشرقية الوثنية الزرادشتية أو الكنفوشيسية، وليس سبيلاً للإنتاج المادي والإسراف في طلب نعيم الجسد فقط كالمنهج الرأسمالي؛ بل منهج وسط كما سبق بيانه يراعي كل متطلبات الكائن البشري، ويرضي الرب سبحانه وتعالى عن عباده، ويحقق السعادة في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: العناية بالمرأة

لم تنحصر عناية الإسلام بالمرأة فقط، وإنما اعتنى بالإنسان بكل مراحل حياته وظروفه وأحواله، وكفل حقوقه بما يعرف اليوم بحقوق الإنسان، بل إن الإسلام اعتنى بكل المخلوقات من حيوان وطير ونبات وجماد.

وأولى الإسلام المرأة شأنا عظيما ولذا أفرتها هنا لعظم الحاجة إليه ولكثرة الشغب حوله، فالمرأة لها شأن عظيم في الإسلام سواء كانت أماً أو زوجة أو بنتاً أو أختاً أو من عامة الناس، فالله قد قرن حق الوالدين بحقه فقال عز من قائل: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ سورة الإسراء، 23. وبين الحق سبحانه حقوق وواجبات كل من الزوجين تجاه الآخر فقال: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة البقرة،228. وأخبر الكريم الرحمن أن الرجل والمرأة يتساويان في الدنيا والآخرة في ثواب العمل والتمتع بآثاره الطيبة وعاقبته الحميدة قال جل ثناؤه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ سورة النحل،97. وأوصى النبي ﷺ الرجال بالنساء فقال في حجة الوداع في خطبة يوم

(1) المسند 311/2 وحسنه محققو الموسوعة الحديثية، سنن الترمذي 123/5، وقال الترمذي حديث حسن، المستدرك 150/4، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التلخيص.

(2) صحيح مسلم، ح 91، 93/1.

عرفة في ذلك المقام المشهود والجمع العظيم:(فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله).[1]

ولم يهمل الشارع توجيه الأزواج إلى ما فيه مراعاة مشاعر النساء والتلطف إليهن فقال ﷺ: (وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك) [2]

ولما كانت العرب في جاهليتهم يتضايقون من البنات – وهذا خلق كل جاهلية – بشر النبي الكريم ﷺ الآباء الذين يرزقون البنات بالخير العظيم عند الله سبحانه وتعالى، فقال:(من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار). [3]

وللرسول ﷺ شأن آخر مع المرأة؛ لذا لم تكتف النساء بما تسمع من رسول الله ﷺ في المسجد وفي خطابه لعامة الناس بل طلبن منه أن يخصص لهن يوماً يأتيهن ويحدثهن ويخصهن بما يناسبهن فوافق ﷺ ففي الحديث الصحيح أن النساء قالت للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار فقالت امرأة واثنين فقال واثنين) [4]

وفي عنايته ﷺ – وهو الرسول المكلف بأعباء الرسالة وبشؤون الدولة – بالمرأة التي كانت تقم المسجد وهي امرأة سوداء من عامة الناس قد لا يُتفطن لمكانها ولا تتبين مكانتها ما يبين حرصه ﷺ على إعطاء كل ذي حق حقه وعلى إنصافه للمرأة فعن أبي هريرة ﷺ قال:(إن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شاباً ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها أو عنه؟ فقالوا مات. قال: أفلا كنتم آذنتموني، قال فكأنهم صغّروا أمرها أو أمره، فقال: دلوني على قبره، فدلوه فصلى عليها).[5] وفي إخباره ﷺ عن ثواب ومكانة المرأة التي حبست نفسها على أطفالها في الدنيا ما يدل دلالة عظيمة على تقدير الإسلام للمرأة التي ضحت بنفسها من أجل أولادها الذين هم لبنة من لبنات المجتمع فقال ﷺ:(أنا وامرأة – سفعاء الخدين – كهاتين يوم القيامة وأومأ يزيد بالوسطى والسبابة، امرأة تأيمت من زوجها

(1) صحيح مسلم، ح 1218، 889/2.

(2) متفق عليه، صحيح البخاري، ح 2591، 1006/3، وصحيح مسلم، ح 1628، 1251/3.

(3) سنن الترمذي، 319/4، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن، وسنن ابن ماجه1210/2.

(4) صحيح البخاري، ح 101، 50/1، واللفظ له، وصحيح مسلم، ح 2633، 2028/4.

(5) صحيح مسلم، ح 956، 659/2، واللفظ له، وصحيح البخاري، ح 448، 176/1.

ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا).[1] قال ابن حجر رحمه الله:(ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة؛ لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رفعه (أنا أول من يفتح باب الجنة فإذا امرأة تبادرني، فأقول من أنت؟ فتقول أنا امرأة تأيمت على أيتام لي!) ورواته لا بأس بهم، وقوله: تبادرني أي لتدخل معي، أو تدخل في أثري، ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين سرعة الدخول وعلو المنزلة).[2]

ففي هذا الدين – كما يرى كل منصف – أن للمرأة مكانة سامية ودرجة عالية لم تبلغها المرأة في أي ديانة سابقة أو حضارة لاحقة، فقد ساوى بينها وبين الرجل في الدنيا والآخرة في ثواب العمل والتمتع بآثاره الطيبة وعاقبته الحميدة، وحث على الوصية بها والعناية بها أماً وزوجة، وبين أجرها في كل ما يتعلق بشؤونها من احتسابها البقاء من دون زوج رعاية لأطفالها... إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه.

المطلب الثالث: الحب

هذا الخلق العظيم والبلسم الشافي لأمراض القلوب، الذي يؤلف بين النفوس ويجمع بين الأرواح، ويصبغ المجتمع صبغة عاطفية يتسامى فيه أفراده عن الضغائن والأحقاد، ويتعاملون فيما بينهم معاملة الأخ لأخيه، بل معاملة المرء مع نفسه، حتى تكون الحياة سعادة غامرة وجنة عامرة. وهذا الحب في هذا الدين أنواع متعددة، حب يشمل الخالق والمخلوق، حب من الخالق لعباده المؤمنين، وحب من المرء لربه، حب يزرع أسباب الود حتى يشمل الرسول ﷺ والأب والأم والزوجة والولد وسائر المؤمنين، بل يمتد ذلك فيشعر المرء برباط الحب يربطه بالأرض التي نشأ عليها، والمعالم التي يتردد في جنباتها، وفي نصوص الوحي ما يبين لك طرفاً من هذا المعنى السامي .

ومن ذلك أولا: محبة الله جل جلاله لعباده

الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين، يحبهم وهو غني عنهم إنما محبة إنعام وإفضال منه لهم، قال تعالى:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ سورة المائدة، الآية،54. بل يرضى عنهم وعن أفعالهم لأنها جاءت موافقة لما أراده منهم قال جل ثناؤه:﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ

(1) مسند الإمام أحمد 29/6 وقال محققو الموسوعة الحديثية: (حسن لغيره)، وسنن أبي داود 338/4 وضعفه الألباني في تعليقه على السنن.

(2) فتح الباري 10 /436.، وانظر تحفة الأحوذي39/6.

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ سورة التوبة، الآية100.

ثانيا: محبة المرء لربه

المسلم يحب ربه لأنه أهل للحب، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ سورة البقرة،165. فهو يحبه لما اتصف به سبحانه من نعوت الجمال والجلال والكمال، ويحبه لما يغذوه به من النعم ويمده به من المنن، فلله على العبد نعم لا تحصى قال الله تعالى:﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ سورة إبراهيم،34. وأعظم الخلق محبة لله هم الأنبياء والمرسلون قال ابن القيم: (فأعرفُ خلقه به وأحبهم له يقول: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ولو شهد – أي المرء – بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله، فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه فاستدلوا بما علموه على ما غاب، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم في حبه شأن آخر، وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حباً له، والخليلان من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة أشدهم له حباً، إلى أن قال: وهل خلق الله سبحانه وتعالى خلقه إلا لعبادته التي هي غاية محبته والذل له وهل هيئ الإنسان إلا لها كما قيل:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل في الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه، فإن كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها، وأما محبته سبحانه فهو الحق الذي لا يزول ولا يبطل كما لا يزول متعلقها ولا يفنى، فسبحان الله كيف ينكر المحبة الحق التي لا محبة أحق منها ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية، وهل تعلقت المحبة بوجود محدث إلا لكمال في وجوده بالنسبة إلى غيره؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء؟ وهل الكمال كله إلا له؟ فكل من أحب شيئاً لكمالٍ ما يدعوه إلى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله، وأنه أولى بكمال الحب من كل شيء، ولكن إذا كانت النفوس صغاراً كانت محبوباتها على قدرها! وأما النفوس الكبار الشريفة فإنها تبذل حبها لأجلّ الأشياء

وأشرفها، والمقصود أن العبد اذا اعتبر كل كمال في الوجود وجده من آثار كماله سبحانه فهو دال على كمال مبدعه، كما أن كل علم في الوجود فمن آثار علمه، وكل قدرة فمن آثار قدرته، ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى عمله سبحانه وقدرته وقوته وحياته، فإذا لا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله سبحانه، فيجب ألاَّ يكون بين محبته ومحبه غيره من الموجودات له بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شيء بما لا نسبة بينهما، ولهذا قال تعالى والذين: ﴿ءامنوا أشد حباً لله﴾ سورة البقرة،165، فالمؤمنون أشد حباً لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، ... فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه).[1]

فأهل الإيمان يحبون الله كأعظم ما يكون الحب، ويعلمون أن محبته غاية كل حي، ويستمدون من محبتهم له ما يعينهم على تحمل المشاق، وبذل المهج والأموال، ومغادرة الأوطان، ويجدون أثر هذه المحبة في قلوبهم سعادة وبرداً ويقيناً حتى إن الفرد منهم ليكون في أضيق عيش وأسوء حال ومع ذلك يشعر بقربه من ربه ومحبته له ما ينسيه ما هو فيه من سوء الحال، ويستعذب أنسه بالله!.

هذا ما يجده أهل الإيمان بالله، لكن ألا ترى أن غاية ما تدعو إليه النصرانية أن يتفانى المرء في محبة المسيح ابن مريم عليه السلام؛ لاعتقاده أنه ابن الله، وأنه بذل نفسه فداء للبشرية، وصلب من أجلها، رغم أن كتابه لا يسعفه في إثبات هذه الحقيقة؛ بل لو تفحصه لوجده متناقضاً في إثباتها، وقصارى جهد البوذي أن يتفانى في محبة بوذا، لما وجد في أساطيره من خرافات تدور حوله، ويعظم البراهمة معبودهم (براهما)، ويقتفي الزرادشتيون أثر زرادشت اعتقاداً بالقداسة التي تنقلها كتب هذه الديانة حول هذه الشخصية... وهكذا كل أتباع نحلة وديانة يعظمون ويحبون بشراً مثلهم يعبدونه ويمنحونه الحب؛ رجاء أن ينفعهم أو يدفع عنهم الضر، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، والسؤال المهم في هذا الباب هل حققت هذه الديانات لأربابها السعادة والأنس وبرد اليقين؟! لكن المسلم يحب الله سبحانه، وهو أهل للحب لذاته سبحانه وتعالى، ولأنه متصف بصفات الكمال والجلال والجمال، كما سبق بيانه. قال ابن القيم رحمه الله:(فإن إيثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها فإذا استقرت المحبة في القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها

(1) طريق الهجرتين لابن القيم، ص 471-473.

وصحتها ... فيكون عاملاً على مراد محبوبه منه، لا على مراده هو من محبوبه، فهذه هي المحبة الخالصة من درن العلل وشوائب النفس) [1] . فإذا محبة الله تحقق للمرء كل مراد النفس، بل هو يستشعر السعادة وهو يحقق مراد ربه منه!.

ثالثا: محبة الرسول ﷺ

يحب المسلم الرسل والأنبياء جميعاً ولا يفرق بين أحد منهم، لأنهم رسل الله، ولأنهم قدموا أعظم هداية للبشر إذا أنقذوهم من الكفر إلى الإيمان، ولأنهم كانوا القدوة المثلى فيما يأمرون به وينهون عنه، ولأنهم حازوا من الفضائل والشمائل أرقاها وأزكاها، ولا شك أن أعظمهم في كل ذلك محمد ﷺ، فهو الذي قدم للبشرية الرسالة الخاتمة، وهو الذي فاق البشر بتحليه بكل الكمال الخلقي البشري حتى وصفه ربه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ سورة القلم،4. قال ابن جرير رحمه الله:(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه). [2] ووصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق الرسول ﷺ فقالت:(كان خلقه القرآن). [3] فلذا يحبه أهل الإيمان امتثالاً لأمر ربهم بمحبته، ووفاء لما قدم لهم من هداية وإرشاد، ومحبة للكمال الذي اتصف به؛ إذ النفوس معلقة بمحبة أهل الكمال، فكيف إذا كان الكامل هادياً ورسولاً ومبشراً ونذيراً، قال ﷺ:(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).[4] وهذا الحب هو علامة الإيمان بل هو علامة كماله وتذوق حلاوته قال ﷺ:(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار).[5] وليست هذه المحبة مجرد ادعاء حبٍ يردده المسلم صباحاً ومساءً كحال الذين يعظمون أئمتهم، وليست غلوا في محبته ورفعاً له فوق منزلته، فقد كان ﷺ ينهى أصحابه أن يعظموه أو يمنحوه شيئاً من الصفات والخصائص التي لا تليق إلا بالله، وكان يقول:(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما

(1) المرجع السابق 444 .

(2) جامع البيان18/29.

(3) المرجع السابق 18/29، وتفسير القرآن العظيم403/4.

(4) صحيح مسلم ح1،67/44.

(5) صحيح البخاري،ح16، 14/1.

أنا عبده فقولوا عبدالله ورسوله). [1] وإنما كانت محبتهم له ﷺ اتباعاً لأمره، وتصديقاً لخبره، واجتناباً لنهيه، وعبادةً لله وفق ما بلغه عن ربه؛ امتثالا لقوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ سورة آل عمران،31،32.

رابعاً: محبة المسلم لعامة المؤمنين

الحب الذي يغشى قلب المؤمن من جراء محبة الله وتعظيمه، يلزم منه حبه لكل من وافقه في هذا الحب السامي والدين العظيم، فيحب الرسل والأنبياء لما سبق بيانه، ويحب سائر المؤمنين؛ لأنهم يشاركونه في هذا الدين ويعبدون الله وحده لا شريك له، ويحبهم لأن من جملة ما يتعلمه المسلم في هذا الدين الإلهي أنه يجب عليه أن يحب إخوانه كما يحب نفسه، بل يحب لهم كما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، قال ﷺ:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).[2] وأرشدهم النبي ﷺ إلى ما يزرع الحب في القلوب ويوصل إلى الجنة:(فقال لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم).[3] وحذرهم من ضد هذا الحب، وبين لهم الأسباب المفضية إلى ذلك فقال ﷺ:(لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال). [4] كل ذلك من أجل أن يعيش المجتمع متماسكاً متراصاً كأنه جسد واحد كل فرد يفرح لفرح إخوانه، ويأسى لأحزانهم، قال ﷺ:(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [5]

فالمسلم يحب الخير للبشرية أينما كانت فيرغب بل تكاد نفسه تذهب عليهم حسرات إن لم يؤمنوا بهذا الدين القويم؛ ولذا قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ سورة فاطر،8. وما ذاك إلا رغبة في نجاتهم، ووقاية لهم من عذاب الله يوم القيامة، وأن يشاركوه في سعادة

(1) المرجع السابق،ح 3،1271/3261.
(2) المرجع السابق،ح 1،14/13.
(3) صحيح مسلم،ح 53، 74/1.
(4) صحيح البخاري،ح5726، 2256/5 .
(5) المرجع السابق،ح5665،2238/5، وصحيح مسلم،ح2586، 1999/4 واللفظ له.

الدنيا والآخرة، فالمسلم ليس أنانياً يريد الخير لنفسه، كما أنه ليس عنصرياً فيترفع عن أبناء الشعوب والأقوام الأخرى، بل يتمنى أن يعم الخير كل الناس.

خامسا: حب الزوجة

عبر القرآن الكريم عن هذه العلاقة بين الزوج والزوجة تعبيراً تعجز اللغات عن الوفاء بمعناه، فقال تعالى:﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ سورة البقرة،186. وجعل الله سبحانه وتعالى خلقه للزوجين بعضهما من جنس بعض من أعظم الأدلة الدالة على وحدانيته فقال جل ثناؤه:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الروم،21. قال ابن كثير رحمه الله:(فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين).[1] وأوصى النبي ﷺ الرجال بالنساء خيراً كما ذكرته عند الحديث عن مكانة المرأة في هذا الدين، ولما سأل عمرو بن العاص رضي الله عنه النبي ﷺ عن من أحب الناس إليه فقال: عائشة. رضي الله عنها. [2]

وحينما تقلب سيرة الرسول ﷺ تجد أنه حينما غادر مكة مكرها خاطبها بعاطفة جياشة خطاب المحب المكرم المعظم فقال وهو على راحلته بالحزورة: والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت). [3]

وبينما هو مقبل على المدينة ينظر إلى جبل أحد قال لمن معه من أصحابه مخبراً لهم عما في نفسه تجاه جبل أحد، وعما يحمله هذا الجبل الأصم من محبة للرسول الكريم ﷺ ولصحبه الكرام، ففي الحديث الصحيح عن أبي حميد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وساق الحديث وفيه ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى فقال رسول الله ﷺ: إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه طابة، وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه). [4]

لكن ألا تدري لماذا تحب هذه البقاع رسولَ الله ﷺ ولمن سار على منهجه؟ إن الخبر الإلهي قد أبان عن حقيقة هذا الحب ودوافعه، إن هذه المخلوقات خلق من خلق الله، وهي تحب من يحب خالقها

---

(1) تفسير القرآن العظيم 275/2.

(2) صحيح البخاري،ح 4،1584/4100، وصحيح مسلم،ح 2384، 1856/4.

(3) مسند الإمام أحمد 10/31 وقال محققو الموسوعة الحديثية: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، وجامع الترمذي 207/6 وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، والمستدرك8/3، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، وقال الذهبي في التلخيص: (على شرط البخاري ومسلم)، وصحيح ابن حبان 22/9.

(4) صحيح البخاري، ح 2،1411/539، وصحيح مسلم، ح 1392، 1011/2، واللفظ له.

وباريها، فإذا الكون كله متحاب في الله متواد فيه، يحب من يحب الله ويبغض من يبغض الله، وفي الخبر التالي مصداق ذلك فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:(إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض). [1] والآية التالية مصرحة بأن السماء والأرض لا تبكي على موت المجرمين والفجار، ويفهم منها أنها تبكي على افتقاد الطيبين الأخيار قال تعالى بعد ذكر خبر غرق فرعون وقومه:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ سورة الدخان،29.

في هذا الدين الإلهي العظيم تكامل الحب وغطى كل ما يتعلق بحياة المخلوق فهو يحب ربه وربه يحبه، ويحب الأنبياء والصالحين ويحبونه، ويحب الأرض والسماء وتبكي عليه الأرض والسماء، ويحبه السهل والوعر... حتى إذا تحول الإنسان غير المسلم إلى الإسلام ورأى عظمة هذا الدين ذلّ لمن شرعه، وتفيأ ظلال هذا الحب فدعا إليه، وها هو مجدي مرجان – وكان قساً نصرانياً فأسلم– لما وجد الحب الحقيقي في هذا الدين ألف كتابه الجميل (محمد نبي الحب) وبعد أن أورد فيه بعض الأحاديث المؤكدة على الحب في هذا الدين قال: (إلى هذه الدرجة يرفع محمد قيمة الحب ومكانته، في حياة الناس وبعد مماتهم، ودلل على أهمية الحب في الدنيا والآخرة، إن الحب عند محمد دليل الإيمان، وشرط دخول الجنة، فالإيمان لا يكتمل إلا بالحب، بل من دون الحب لا يوجد الإيمان، إن الإنسان لا يكون مؤمناً إلا إذا كان محباً، فالحب هو لباب الإيمان وأساسه) [2]

المطلب الرابع: الرحمة

(1) صحيح البخاري، ح 3،1175/3037، وصحيح مسلم، 2637، 2030/4، واللفظ له.
(2) محمد نبي الحب، 10-11.

التعريف: الرحمة الرقة والتعطف و المرحمة مثله، وقد رحِمه بالكسر رحمة و مرحمة أيضاً، و تراحم القوم رحم بعضهم بعضاً، والرحم القرابة، والرحم أيضاً بوزن الجسم مثله، [1]

قال الراغب: والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلاناً، فالرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان. [2]

والرحمة في هذا الدين أعم من أن يشار إليها في هذه العجالة؛ وما ذاك إلا لأن الرحيم والرحمن من أسمائه سبحانه وتعالى، والرحمة صفة من صفاته، وهي أيضاً في أصل الرسالة وصفة من صفات الرسول ﷺ بل هو نبي الرحمة كما سيأتي بعد قليل، والله سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمداً ﷺ رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنبياء،107. فالله سبحانه وتعالى أرسله رحمة للخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، ولذا قال إمام المفسرين ابن جرير بعد أن أورد الأقوال في هذه الآية: (وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن بن عباس وهو أن الله أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله).[3]

وبعد بيان أن رسالة الرسول ﷺ كانت رحمة للعالمين فتعالَ أخي القارئ لنتفيأ نحن وإياك ظلال هذه الرحمة فنذكر أولا الأدلة على اتصاف ربنا عز وجل بصفة الرحمة، ثم نذكر رحمة نبينا محمد ﷺ وإرشاده أمته إلى أن تتحلى بالرحمة وبيان جوانب ذلك.

فمما يدل على رحمة الله [4] سبحانه وتعالى أن من أسمائه الرحمن والرحيم، ومن صفاته الرحمة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ سورة الكهف،59. ومن رحمته بخلقه كتب على نفسه الرحمة فقال جل ثناؤه: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الأنعام،12. وأخبر سبحانه أن رحمته وسعت كل شيء قال تعالى:﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم

---

(1) مختار الصحاح، مادة رحم، 100/1.

(2) المفردات، ص 191. وانظر التعريفات للجرجاني360/1.

(3) جامع البيان 106/17.

(4) هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه أظهر من أن يستدل عليه، ولكن الحديث عن القيم في هذه الرسالة يستلزم الحديث عن اشتمالها على الرحمة، ولا يمكن الحديث عن الرحمة في هذه الرسالة بمعزل عن الحديث عن رحمته سبحانه وتعالى، نسأله أن يعمنا برحمته، وأيضا فإنني أعتزم ترجمة هذا البحث ليطلع عليه غير المسلمين فوجب بيان ذلك لكل ما سبق..

بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الأعراف،156. وبين النبي ﷺ أن من رحمة الله بخلقه أنه كتب على نفسه أن رحمته سبقت غضبه فعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول:(إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي. فهو مكتوب عنده فوق العرش) [1]

بل أمر الله رسولهﷺ أن يبشر المؤمنين الذين يقعون في الذنوب ويرغبون في الإنابة أن يقول لهم سلام عليكم إن الله كتب على نفسه الرحمة وإن من رحمته أن الله يتوب على من تاب قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة الأنعام،54. قال ابن جرير رحمه الله بعد أن أورد الأقوال في تفسير هذه الآية:(فتأويل الكلام – إذ كان الأمر على ما وصفنا – وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيقرون بذلك قولاً وعملاً، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم سلام عليكم أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، كتب ربكم على نفسه الرحمة، يقول قضى ربكم الرحمة بخلقه أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم). [2] ووضح النبي الكريم ﷺ أن الله أرحم بعباده من الأم الرؤوم بولدها، فبينما النبي ﷺ يرى امرأة ترضع ولدها قال لأصحابه:(أترون هذه طارحة ولدها في النار؟! قلنا لا وهي تقدر على ألاُ تطرحه! فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها). [3] وهذه الرحمة التي تتراحم بها الخليقة إنما هي جزء من تسعة وتسعين جزءاً من رحمته سبحانه وتعالى، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:(إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار). [4]

أما رحمة نبينا محمد ﷺ فرسالته رحمة كما سبق بيانه، ووصفه ربه بالرحمة فقال جل ثناؤه:﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة التوبة،128. وهو أرحم الخلق بالخلق فمن ذلك أن كفار قريش حاولوا قتله وبالغوا في أذاه وضيقوا

(1) صحيح البخاري، ح 7115، 2745/6.
(2) جامع البيان 208/7.
(3) صحيح البخاري،ح5653، 2235/5.
(4) المرجع السابق، ح6104، 5 /2374.

على أصحابه حتى هاجروا فراراً بدينهم ومع ذلك خرج من بينهم لئلا ينزل عليهم العذاب، ونزل إليه ملك الجبال مع جبريل عليهما السلام لعذاب قريش فقال مقالته المشهورة (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبدالله) [1] وحينما فتح الله عليه مكة وعاد إليها بلا حرب قال لخصومه في يوم انتصاره عليهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء). [2] وسيأتي مزيد بيان لرحمته ﷺ بخصومه في موضوع (احتمال المخالف).

أما رحمته ﷺ بالطفل الصغير فكان يقبّل الطفل ويضعه في حجره ففي الحديث الصحيح أن أبا هريرة رضي الله عنه قال قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً!. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (من لا يرحم لا يرحم). [3] بل ربما أدى الصلاة المكتوبة وهو يؤم الناس والطفلة على عاتقه، فعن أبي قتادة قال:(خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها).[4] أما رحمته وعنايته بالمرأة فقد أفردت لها موضوعاً خاصاً في هذا البحث .

ومما نقل عن الفاروق عمر ﷺ أنه استعمل رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده قال فأتي عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقبله، قال أتقبل هذا؟! ما قبلت ولداً قط. فقال عمر: فأنت بالناس أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً.[5]

أما رحمته ﷺ بالطير والحيوان فحدث ولا حرج فعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما قال فجاءت الحمرة إلى رسول الله ﷺ وهي تفرش فقال النبي ﷺ:(من فجع هذه بفرخيها؟ قال فقلنا نحن. قال: فردوهما). [6]

وكان ﷺ يأمر أصحابه رضي الله عنهم بالرحمة بالحيوان وينكر عليهم إذا رأى تقصيراً منهم في ذلك فقد دخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبيَ ﷺ حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ

---

(1) المرجع السابق،، ح 3059، 1180/3، وصحيح مسلم، ح 1795، 1420/3.

(2) انظر السنن الكبرى للبيهقي 118/9، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (18/8).

(3) صحيح البخاري، ح 5651، 2235/5.

(4) المرجع السابق،ح،2235/5.

(5) سنن البيهقي الكبرى 9 /41.

(6) سنن أبي داود 8/3، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 33/1 .

فمسح ذفراه فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال لي يا رسول الله! فقال أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه). [1]، وبين النبي الكريم ﷺ عظيم الأجر لمن يرحم الحيوان، ويحسن إليها، سواء كانت هذه الحيوان مما يملك أم من سائر الحيوانات فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:(بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا يا رسول الله! وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر).[2]

المطلب الخامس: السلام

التعريف اللغوي: قال ابن منظور: السلام والسلامة البراءة، تسلم منه تبرأ. وقال ابن الأعرابي: السلامة العافية،... وكانت العرب في الجاهلية يحيون بأن يقول أحدهم لصاحبه: أنعم صباحاً وأبيت اللعن، ويقولون: سلام عليكم، فكأنه علامة المسالمة وأنه لا حرب هنالك، ثم جاء الله بالإسلام فقصروا على السلام وأمروا بإفشائه إلى أن قال وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ سورة الفرقان، 63. معناه تسلماً وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر، وقال ابن عرفة قالوا سلاماً أي: قالوا قولا يتسلمون فيه ليس فيه تعد ولا مأثم. قال أبو منصور نتسلم منكم سلاماً ولا نجاهلكم وقيل: قالوا سلاماً أي سداداً من القول وقصداً لا لغو فيه، وقوله قالوا سلاماً قال: أي سلموا سلاماً وقال سلام أي أمري سلام لا أريد غير السلامة.[3]

التعريف الشرعي: السلام: هو طلب السلامة من كل مكروه، والسلام من أسمائه تعالى، وحقيقة هذه اللفظة البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. [4] والتسليم مشتق من السلام اسم الله تعالى لسلامته من العيب والنقص، وقيل معناه: أن الله مطلع عليكم فلا تغفلوا، وقيل معناه: اسم السلام عليك؛ إذ كان اسم الله تعالى يذكر على الأعمال توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيه وانتفاء عوارض

(1) سنن أبي داود 23/3، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 28/1

(2) صحيح مسلم، ح 1761/2240،4.

(3) لسان العرب، مادة سلم، 290/12

(4) بدائع الفوائد 143/2.

الفساد عنه، ومنه قيل للجنة دار السلام؛ لأنها دار السلامة من الآفات، وقيل معناه سلمت مني فاجعلني أسلم منك من السلامة بمعنى السلام، [1] وإنما المقصود منه كما قال ابن القيم رحمه الله: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء، فتخبر الذي تسلم عليه أنه في سلام منك، وتدعو له بالسلام وبالسلامة من الآفات[2]

ويقول ابن القيم رحمه الله:(وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه، وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة، وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها، فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم (سلام عليكم) وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التي منها ما هو محال وكذب نحو قولهم تعيش ألف سنة، وما هو قاصر المعنى مثل أنعم صباحاً، ومنها ما لا ينبغي إلا لله مثل السجود، فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله؛ لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم على كل شيء، ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين: بسلامته من الشر، وحصول الخير كله، والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل حيوان بسلامته أولاً ثم غنيمته ثانياً، على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير، فانتظمت الأصلين الذين لا تتم الحياة إلا بهما، مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له).[3]

ومن هذا اللفظ المتضمن لهذه المعاني أخذ مسمى الإسلام فإنه من هذه المادة لأنه الاستسلام والانقياد لله تعالى، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به.[4]

فالسلام مبدأ عظيم أمر به الإسلام وحث عليه وتعددت النصوص التي ترشد إليه وتبين ثماره ومنافعه، ويدرك المرء الحاجة إليه أكثر في هذا العصر الذي يصح أن تسميه عصر الحرب لا عصر السلم، وقد

---

(1) لسان العرب، مادة سلم290/12و النهاية في غريب الأثر 392/2

(2) بدائع الفوائد 371/2.

(3) المرجع السابق 373/2.

(4) إعلام الموقعين 362/2.

أخبر النبي ﷺ عن هذه الأزمنة وسماها أيام الهرج أي القتل فقال النبي ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل حتى يكثر فيكم المال فيفيض) [1] فصدقت نبوته وأصبحنا نسمع فيه قعقعة السلاح وقرع طبول الحرب أكثر مما نسمع أخبار الخير والعطاء، ونرى الجثث في شوارع المدن أكثر مما نرى واجهات المساجد والمدارس والمصانع، وتصك الآذان صيحات الأطفال واستغاثات النساء أكثر مما نسمع أناشيد الطفولة وترنيمات الأمهات لأطفالهن، ونشم رائحة البارود أكثر مما نشم رائحة العطور، وهب أنك تسير العاشرة ليلاً في أحد شوارع نيويورك أو كركاس أو غيرها من المدن المسكونة بالرعب والخوف، ثم يقابلك رجل لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعل؛ ثم يقول لك السلام عليكم. فما الأمان الذي حل عليك؟ وما السكينة التي خالطت قلبك؟! وكم تتلفت إلى مأمن وتبحث عن معاذ تعوذ به وتتحرى أذنك عبارة تمنحك الأمن والسلام في كثير من شوارع عواصم العالم اليوم، وتحدث نفسك أنك إن عدت إلى غرفة الفندق أو البيت ولم يعتد عليك لص يسلب مالك، ولم تفاجأ بلغم أو قنبلة موقوتة تقضي على حياتك وآمالك – فقد كسبت هذا اليوم ورأيته مغنما، كم أنت بحاجة إلى السلام في عواصم تحمّلك إدارة الفندق كامل المسؤولية إذا فتحت باب غرفتك لزائر لا تعرفه ... في مثل هذه الأجواء يكون السلام قيمة عالية الأهمية ومبدأً عظيم القدر في حياة الأمم والشعوب، وسبيلاً إلى قيام الحضارات، بل لا تقوم حضارة بغير أمن وسلام؛ ولذا ذكّر الله أهل مكة حينما بعث إليهم رسوله محمداً ﷺ بنعمة الأمن والإطعام فقال عز من قائل: ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4) ﴾ سورة قريش،1-4.

من أجل ذلك جاء التوكيد على هذا الأمر المهم في هذا الدين الخاتم؛ من وجوه متعددة منها:

الأول: أن السلام من أسمائه تعالى وهو أولى وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله

(1) صحيح البخاري،ح 989، 350/1 واللفظ له، وصحيح مسلم،ح 2672، 2056/4.

من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة؛ بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار [1]

وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن نفسه ومعرفا عباده بأسمائه: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ سورة الحشر،23. وبين أن المسلمين الذين أسلموا وسلّموا وسلم غيرهم منهم أن مآلهم الجنة دار السلام، وهذا تناسب عجيب بين الفعل وهو السلام، وبين الثمرة وهي دار السلام، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأنعام،127.

الثاني: أنه بشر عباده المؤمنين بأن لقاءهم به سبحانه تكون التحية فيه هي السلام، قال جل ثناؤه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ سورة الأحزاب،43،44. قال ابن كثير رحمه الله: (الظاهر أن المراد – والله أعلم – تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال الله عز وجل ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ سورة يس،58) [2] ففي هذا اليوم المخوف الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويعلم كل إنسان أنه مؤاخذ بذنبه؛ يتنزل السلام والتسليم على أهل الإيمان من الرب الرحيم!! فيا لها من بشرى ما أعظمها؟! ويا له من أمن ما أبرده على القلب.

الثالث: أن السلام من أول مقاصد الرسالة الخاتمة فعن عبدالله بن سلام – وهو من أحبار اليهود – قال لما قدم النبي ﷺ أنجفل الناس عليه فكنت فيمن انجفل فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء سمعته يقول: (أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام). [3]

الرابع: أن السلام يعتبر في هذا الدين من خير شعبه وأهم مبادئه فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال:(تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) [4] فانظر كيف قرن النبي ﷺ بين عمادي قيام البلدان والأبدان الإطعام والسلام، كما

---

(1) إعلام الموقعين 363/2.

(2) تفسير القرآن العظيم497/3.

(3) سنن الترمذي 652/4 وقال: ((هذا حديث صحيح))، سنن ابن ماجه1083/2، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 109/2

(4) صحيح البخاري، ح 1،12/13، وصحيح مسلم ح 39، 65/1.

قرن بينهما الله في سورة قريش، وبوب البخاري رحمه الله في صحيحه فقال باب أي الإسلام أفضل وأورد فيه حديث أبي موسى ﷺ قال: قالوا يا رسول الله! أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده).[1] وقال عمار ﷺ: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار). [2] وهذا من عجيب فقه عمار ﷺ حيث ذكر هذه المقومات الثلاث التي من جمعهن فقد جمع الإيمان؛ فإذا أنصف من نفسه فقد أعطى لكل ذي حق حقه، وإذا بذل السلام للعالم فقد سلم منه الخلق وبذل لهم السلام، ثم نوّه إلى أمر إيجابي يحتاج إليه الخلق من كل ذي سعة وبذل ألا وهو الإنفاق من الإقتار، فأعظِم بهذا الدين، وأعظِم بحملته الأوائل كيف فقهوه وطبقوه!.

الخامس: أنه علامة على ائتلاف المجتمع ومحبة بعضهم لبعض، فالإسلام لم يكن ديناً غرضه أن يعبد الإنسان ربه في المسجد وينساه في سائر مرافق الحياة، كالمسيحية التي تعلم أتباعها أن يتعبدوا في الكنيسة يوم الأحد ليعيثوا في الأرض فساداً بقية الأسبوع، يقول عبد الأحد داود وكان قسا نصرانيا ثم أسلم مخبرا عما كان يجده في ديانته النصرانية(فإنه عندما يخرج من الكنيسة حيث شارك في تناول العشاء الرباني الذي يسمونه القربان المقدس يصبح متعصبا وانعزاليا، لدرجة أنه يفضل لقاء كلب على لقاء مسلم أو يهودي؛ لأن هذين لا يؤمنان بالثالوث وبالعشاء الرباني، إنني أعرف ذلك وكنت أحمل نفس العواطف عندما كنت قسا كاثوليكيا). [3]

لكنما الإسلام دين يهدف إلى تحقيق العبودية التامة لرب العالمين في كل زمان ومكان، فعن أبي هريرة قال, قال رسول الله ﷺ:(لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم).[4] قال ابن العربي: (فيه إن من فوائد إفشاء السلام حصول المحبة بين المتسالمين؛ وكان ذلك لما فيه من ائتلاف الكلمة لتعم المصلحة بوقوع المعاونة على

---

(1) صحيح البخاري،ح 11، 13/1، وصحيح مسلم،ح 1،65/41.

(2) صحيح البخاري19/1.

(3) محمد في الكتاب المقدس152. وله كتاب آخر بعنوان: الإنجيل والصليب، وهذا المؤلف كان من كبار الآباء الروحانيين الكاثوليكيين لطائفة الكلدان، وقد تدرج في الدراسة الجامعية حتى نال شهادة الليسانس في علم اللاهوت، ثم واصل دراسته حتى نال درجة بروفسر.

(4) صحيح مسلم،ح1،54 /74.

إقامة شرائع الدين، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها عن النفور إلى الإقبال على قائلها). [1]

وقال الإمام النووي رحمه الله:(وفى إفشائه تَمَكُّنُ ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين، وفى هذه الأحاديث جمل من العلم ففيها: الحث على إطعام الطعام والجود والاعتناء بنفع المسلمين، والكف عما يؤذيهم بقول أو فعل مباشرة أو سبب، والإمساك عن احتقارهم، وفيها الحث على تآلف قلوب المسلمين، واجتماع كلمتهم وتوادهم واستجلاب ما يحصل ذلك قال القاضي رحمه الله: والألفة إحدى فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام، قال: وفيه بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف، وإخلاص العمل فيه لله تعالى لا مصانعة ولا ملقاً، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع، إلى أن قال: وفيها أي ألفاظ هذه الأحاديث لطيفة أخرى وهى أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به).[2]

السادس: افتقاده قد يوجب الريبة، لما كان السلام عنواناً للسلامة وإعلاناً للمسالمة وطلباً للبراءة؛ كان افتقاده قد يوجب الريبة؛ ولذا حرم الإسلام التقاطع والتهاجر، وأنه لا يحل منه إلا الثلاث التي أشار إليها النبي ﷺ، وأرشد إلى ترك ذلك، وبين أن خيرهما الذي يبدأ بالسلام؛ إذ أنه عنوان للمسالمة وترك القطعية، قال النبي ﷺ قال:(لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام). [3]

ولذا لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام وقالوا له سلاماً، وقدم لهم الطعام ولم يطعموه أوجس منهم خيفة كما أخبر الله عنهم فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوط ﴾ سورة هود،69، 70. قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذا الآية: (لأن التسليم لا يكاد يكون إلا بين أهل السلم دون الأعداء، فإذا ذكر تسليم من قوم على قوم ورد الآخرين عليهم دل ذلك على مسالمة بعضهم بعضاً. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه

(1) فتح الباري 11 /18،19 . بتصرف يسير.

(2) شرح النووي على مسلم2/10،11،36.

(3) متفق عليه، صحيح البخاري،ح 5883، 2302/5 وصحيح مسلم، ح 2560، 1984/4.

نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، يقول تعالى ذكره فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تصل إلى العجل الذي أتاهم به، والطعام الذي قدم إليهم؛ نكرهم وذلك أنه لما قدم طعامه عليه السلام إليهم فيما ذكر كفوا عن أكله، لأنهم لم يكونوا ممن يأكله، وكان إمساكهم عن أكله عند إبراهيم وهم ضيفانه مستنكراً، ولم تكن بينهم معرفة، وراعه أمرهم وأوجس في نفسه منهم خيفة). [1] ففهم إبراهيم عليه السلام أن السلام عنوان مسالمة، فلما قدم الطعام ولم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فعلى هذا يكون ترك السلام موجب للريبة.

المطلب السادس: الأخلاق

تعريفه: الأخلاق جمع خُلق، وقال الجوهري: والخلق: السجية. يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر. وفلان يتخلق بغير خلقه، أي يتكلفه. قال الشاعر:

إن التخلق يأتي دونه الخلق [2]

وقال الزبيدي في تاجه: الخُلُقُ بالضَّمِّ وبضَمَّتيْنِ: السجية وهو ما خلق عليه من الطبع، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها : " كان خلقه القرآن ": أي كان متمسكاً به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. وقال ابن الأعرابي: الخلق: المروءة، والخلق: الدين وفي التنزيل:﴿وإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾ سورة القلم،4،والجمع أخلاق لا يكسر على غير ذلك وفي الحديث: " ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق " وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة . أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة؛ ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع، ثم أورد أحاديث ثم قال: وكذلك جاءت في ذم سوء الخلق أيضاً أحاديث كثيرة). [3]

---

(1) جامع البيان 12/69-71.

(2) الصحاح في اللغة، مادة خلق.

(3) تاج العروس، مادة خلق.

فالأخلاق إذاً هي الصورة الإنسانية الباطنة التي تعطي للصورة الظاهرة حسنها أو قبحها، وبما أن الأخلاق بهذه المكانة فقد عني بها الشرع الحنيف عناية فائقة، فبين أصول الأخلاق المحمودة، وبين أصول الأخلاق المذمومة، وبين عواقب التخلق بكل واحد منها، وبما أن النصوص التي تناولت هذا الباب كثيرة جداً فلن أتناول النصوص التي حضت على نوع محمود من الخلق، أو حذرت من نوع مذموم منها، وسأكتفي بذكر النصوص الدالة على حسن الخلق أو النصوص التي تحذر من سيئ الأخلاق.

وقبل الخوض في ذلك أقول:إن الأخلاق في الإسلام مبدأ وعقيدة لا تتغير ولا تتبدل سواء كان المقابل صديقاً أو عدواً، قريباً أم بعيداً، سواء كان المسلم منتصراً أو مهزوماً، وكثير من الأمم تكون أخلاقها تبعاً لمصالحها فإن كانت للفرد أو الدولة مصلحة في الصدق صدقوا، وإن كان الكذب سيحقق مكسباً ومغنماً كان هو المطية، وبئس المطية الكذب، ومن نظر في كثير من السياسات العالمية اليوم وجد أنها سياسات غير أخلاقية وإنما هي سياسات مصالح، لا سياسات مبادئ؛ بينما الرسالة الخاتمة كان الجانب الخلقي من أبرز مقوماتها، ولذا قال النبي ﷺ:(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).[1] ولم يكن هذا المبدأ شعارا فقط بل دعا إليه ﷺ، فهذا أبو ذر رضي الله عنه قبل إسلامه لما سمع بمبعث النبي ﷺ قال لأخيه اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله.! فرجع فقال: (رأيته يأمر بمكارم الأخلاق).[2] ومن هذه المكارم التي أمر بها قوله تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف199،200. وقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة آل عمران،134. وتأمل هذا البعد الاجتماعي والأخلاقي في قوله ﷺ:(لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه).[3]

---

(1) المسند 381/2، مصنف ابن أبي شيبة324/6، السنن الكبرى للبيهقي191/10.

(2) صحيح البخاري 5 /2244.

(3) صحيح مسلم،ح2564، 1986/4، قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث 51/5: ((نجش: هو أن يمدح السلعة لنفقها ويروجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها))، وقال 206/2: ((لا تدابروا: أي لا يُعْطي كُلُّ واحد منكم أخَاه دُبُرَه وقفَاه فيُعْرض عنه ويهْجُره)).

وهذا الخلق الذي دعا إليه ﷺ كان هو أول من امتثله وتخلق به؛ ولذا وصفته زوجته رضي الله عنها لما سألها سعد بن هشام بن عامر عن خلق الرسول ﷺ حيث قال أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين! أخبريني بخلق رسول اللهﷺ. فقالت:(كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[1] فكان يأتمر بأمر القرآن، وينتهي عن مناهيه، وينزجر عن زواجره، ويصدق بأخباره، ويخضع ويُخضع من تحت يده لأحكامه، فكانت حياته ﷺ تطبيقاً حياً لهذه المبادئ التي نادى بها ودعا إليها، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال:(لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً).[2]

ولم يكن الخلق الذي تخلق به ودعا إليه خاصاً بالمقربين منه أو بأتباعه على دينه أو بأبناء جنسه العرب؛ وإنما كان عاماً لكل الناس البر والفاجر، والمؤمن والكافر القريب والبعيد، ولذا لما أرسل معاذاً إلى اليمن ﷺ أوصاه بهذه الوصية الجامعة فقال:(اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن). [3] فهذه الوصية تعتبر منهجاً شاملاً للحياة، فقوله: اتق الله حيثما كنت، ترسم للمسلم علاقته مع ربه في كل أحواله، وقوله: وأتبع السيئة الحسنة تمحها، تبين للمرء كيف يتعامل مع هذه النفس التي بين جنبيه وكيف يصلح أخطاءها، ويقيم مسارها، وقوله: وخالق الناس بخلق حسن، تشرع للمؤمن المنهج الرباني في العلاقات البشرية وأنه يجب أن يسيطر عليها الخلق الحسن، لا أن تكون خاضعة لأهواء النفوس ومصالح البشر. وقال سبحانه وتعالى مؤكداً هذا الشمول في التعامل مع البشر:﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ سورة البقرة، 83 . وهذا الشمول في التعامل مع كل البشر يتطلب شمولاً أيضاً في جنس الخلق الذي يجب التعامل معهم من خلاله، فيجب أن يتعامل المرء مع كل الناس بحسن الخلق، ولمعرفة ما هو حسن الخلق نجد أن النواس بن سمعان الأنصاري ﷺ سأل الرسول ﷺ عن البر والإثم فقال الرسول ﷺ:(البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك

---

(1) المسند 91/6، وصححه محققو الموسوعة الحديثية، وأصله في صحيح مسلم ح746، 512/1 .

(2) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو، صحيح البخاري،3366، 3 /1305، وصحيح مسلم،ح 2321، 1810/4.

(3) المسند 228/5، وسنن الترمذي355/4، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، والمستدرك على الصحيحين121/1 وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وعلق الذهبي في التلخيص بقوله: ((على شرطهما)) والمعجم الكبير للطبراني144/20.

وكرهت أن يطلع عليه الناس). [1] ففسر النبي ﷺ البر بحسن الخلق، وقال السدي: البر اسم جامع للخير كله. [2] فمن أراد الخير كله فعليه بحسن الخلق، مع جميع الخلق، وبين الإمام الشافعي رحمه الله أركان المروءة التي بها تستقيم أخلاق الإنسان فقال:(المروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك). [3]

والتعامل مع الخلق كل الخلق بخلق حسن قد لا تستطيعه كل النفوس؛ ولذا رتب الله عليه أعظم الأجر وبين الرسول ﷺ أن أكمل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً فعن أبي سعيد الخُدْرِي قال: قال رسول الله ﷺ:(أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وليس منا من لا يألف ولا يؤلف). [4]

كما بشر أهل الأخلاق الحسنة بأن هذا الخلق هو أثقل أعمالهم يوم القيامة في ميزان حسناتهم فعن أبي الدرداء قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق, وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة). [5] وعظّم النبي ﷺ شأن حسن الخلق حتى قال لزوجه أم سلمة: (ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة). [6] فإذا ذهب بخيري الدنيا والآخرة فماذا بقي لسائر الأعمال؟! ولكن إن كل عمل طيب مبارك فيه قيام بحق الله أو قيام بحقوق العباد فهو مبني على حسن الخلق.

وليست هذه الفضائل والأجور هي ما يترتب على حسن الخلق فقط بل بين النبي ﷺ أن الأقرب منه مجلساً يوم القيامة هو من حسن خلقه، فعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال في مجلس:(ألا

---

(1) صحيح مسلم،ح 2553، 1980/4.

(2) مشارق الأنوار 84/1.

(3) السنن الكبرى للبيهقي 195/10.

(4) المعجم الأوسط 4/ 357، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 389/2، وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر 435/5: ((هذا مثل، وحقيقته: من التوطئة وهي التمهيد والتذليل. وفراش وطيء: لا يؤذي جنب النائم. والأكناف: الجوانب. أراد الذين جوانبهم وطيئة يتمكن فيها من يصاحبهم، ولا يتأذى)).

(5) سنن أبي داود 253/4، وسنن الترمذي 363/4 واللفظ له، قال الألباني: وسنده جيد. السلسلة الصحيحة 563/2 .

(6) المعجم الأوسط 279/3.

أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟! ثلاث مرات يقولها، قلنا بلى يا رسول الله! قال: أحسنكم أخلاقاً).[1]

ولن يستطيع الباحث أن يلم بكل آية أو حديث تناولت خلقاً محموداً فحثت عليه، أو ذكرت خلقاً ذميماً فحذرت منه، والناظر في هذه النصوص يجد أنها ركزت على أصول الأخلاق الحميدة: كالحياء والكرم والصدق والشجاعة والعفاف والعدل والحلم، وبينت أصول الأخلاق الخبيثة: كالكذب والبخل والحسد والكبر والنفاق والغش والنميمة والغيبة، ولن يتسع البحث لذكر دليل لكل خلق من هذه الأخلاق؛ ولكن لعل فيما ذكرته كفاية إذ فيه بيان مكانة الخلق في هذا الدين،وبيان مكانة صاحبه يوم القيامة، وفضل المتخلق به في الدنيا والآخرة.

المطلب السابع: النظافة

تعريف النظافة قال في القاموس:(النظافة النقاوة،نظف,ككرم فهو نظيف ونظفه تنظيفاً فتنظف).[2]
وقال ابن منظور:(النظافة النقاوة، النظافة مصدر التنظيف، والفعل اللازم منه نظف الشيء بالضم نظافة فهو نظيف حسن ونظفه ينظفه تنظيفاً أي نقاه). [3]
والنظافة في هذا الدين العظيم شاملة لجميع جوانب الحياة فهي نظافة للقلب والقالب، نظافة في القول والعمل، نظافة في المطعم والملبس والمشرب، نظافة للحي والشارع، نظافة حسية ومعنوية، وأعظم ما أمر الله عباده أن يتنظفوا منه الشرك قال جل ثناؤه:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ سورة المدثر،1-5.
وفي هذه الآيات وهي من أول ما نزل على رسوله ﷺ أمره الله سبحانه وتعالى أن يطهر ثيابه من النجاسات، وأن يطهر قلبه من الشرك، وأن يهجر كل ما يفضي إليه من سبب أو وسيلة، وأن يخلص عمله لله رب العالمين. قال ابن جرير رحمه الله:(وقوله (وثيابك فطهر) اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك لا تلبس ثيابك على معصية ولا على غدرة، ويرويه عن ابن عباس

---

(1) المسند للإمام أحمد 609/11 وحسنه محققو الموسوعة الحديثية، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده جيد، وصحيح ابن حبان 235/2

(4) القاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة نظف.

(5) لسان العرب ج:9 ص:336

رضي الله عنهما من طريق عكرمة قال أتاه رجل وأنا جالس فقال: أرأيت قول الله (وثيابك فطهر) قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وقال آخرون بل معنى ذلك لا تلبس ثيابك من مكسب غير طيب.

وقال آخرون بل معنى ذلك أصلح عملك). [1] فأنت ترى أقوال المفسرين في معنى هذه الآيات أنها تتضمن الأمر بتنظيف وتنقية الظاهر والباطن.

وقال ابن حجر رحمه الله:((وربك فكبر) أي عظم (وثيابك فطهر) أي من النجاسة، وقيل الثياب النفس وتطهيرها اجتناب النقائص، والرجز هنا الأوثان). [2]

وقال المباركفوري:((وربك فكبر) أي عظّم ربك عما يقوله عبدة الأوثان (وثيابك فطهر) أي من النجاسات والمستقذرات؛ وذلك أن المشركين لم يكونوا يحترزون عنها، فأُمِرَ ﷺ بصون ثيابه من النجاسات وغيرها خلافاً للمشركين، (والرجز فاهجر) أي اترك الأوثان ولا تقربها). [3]

والأمر بالنظافة والتطهر من الشرك لا يكفي بل يجب على المسلم أن يتطهر من جميع الذنوب وآثارها؛ ولذا شرع الله الصلوات الخمس والوضوء عند كل صلاة لتتحقق هذه الطهارة اليومية من الذنوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:(إذا توضأ العبدالمسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء؛ حتى يخرج نقياً من الذنوب) [4] وكما يشرع للصلاة الوضوء فمعلوم أنه يسبقه الاستنجاء؛ ولذا أثنى الله على من بالغ في ذلك فقال جل ثناؤه:﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ سورة التوبة،108 .قال ابن جرير رحمه الله:(يحبون أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط). [5]

---

(1) تفسير الطبري ج:29 ص:144- 146.

(2) فتح الباري 28/1.

(3) تحفة الأحوذي 172/9 .

(4) صحيح مسلم،ح 244، 255/1.

(5) جامع البيان 29/11.

وحذر من التهاون بالتنزه عن البول وبين أن عامة عذاب القبر منه فعن ابن عباس ﷺ قال مر النبي ﷺ بقبرين فقال:(إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير! أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة). [1]

كما شرع أيضا صلاة الجمعة للنظافة الأسبوعية شرع لها الاغتسال والطيب والادّهان قبلها فعن سلمان الفارسي قال قال رسول الله ﷺ:(من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر، ثم ادهن أو مس من طيب، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له، ثم إذا خرج الإمام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى) [2] فمن تقرب إلى الله بهذه العبادة العظيمة جعله الله نقيا من الذنوب والآثام – ما لم يغش كبيرة- من الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام قال رسول اللهﷺ:

(من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فسمع وأنصت غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام).[3]

وشرع صيام رمضان للطهارة السنوية فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:(من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).[4]

كما شرع العمرة والحج مرة واحدة ليتحقق للمسلم طهارة تامة من الذنوب ويرجع من حجه وعمرته إذا أحسنهما كيوم ولدته أمه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:(العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).[5] وقال ﷺ:(من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه).[6]

ومع أن الشارع الحكيم شرع هذه العبادات وغيرها لطهارة ونظافة الباطن من الآثام والذنوب فقد شرع عبادات أخرى تتعلق بنظافة الجسد من الخارج؛ حتى تتوافق نظافة الباطن والظاهر فمن ذلك الوضوء لكل صلاة، والاغتسال الواجب من الحدث الأكبر، والاغتسال ليوم الجمعة، ومن ذلك

---

(3) صحيح البخاري،ح215، 88/1، وصحيح مسلم، ح 1،240/292.

(4) صحيح البخاري، ح 1،308/868، وصحيح مسلم ، 850، 582/2.

(5) المسند المستخرج على صحيح مسلم،1 /296 .

(6) صحيح البخاري، ح 1802، 672/2، وصحيح مسلم ؛ 760، 523/1.

(5) متفق عليه من حديث أبي هريرة، صحيح البخاري، ح 1683، 629/2، وصحيح مسلم، 1349، 983/2.

(6) صحيح البخاري، ح 1449، 553/2.

العناية بالمظهر كقص الأظافر وما شابهه من سنن الفطرة؛ ولذا قال ﷺ:(الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب). [1]

وقال مراد هوفمان سفير ألمانيا في المغرب بعد أن استعرض بعد موجبات الطهارة والنظافة في الإسلام قال: (ويمكنني أن أقول بصدق: إنني انزعجت مراراً من رائحة أناس يجلسون بجانبي في حفلات الأوبرا الغنائية في باريس أو في مركز لنكولن في نيويورك، أو في المسرح الوطني في ميونخ؛ إلا أنني لم أنزعج من رائحة كريهة على الإطلاق في مسجد من مساجد المسلمين. ثم طرح السؤال التالي: هل يمكن أن يعني هذا أن المسلمين هم الأنظف؟!)[2]

وأمر النبي الكريم ﷺ أن يحرص المسلم على طيب كلامه وفعله ومأكله فقال ﷺ:(طيبوا أفواهكم بالسواك فإنها طرق القرآن) [3] قال أبو السعادات ابن الجزري:(أي صونوها عن اللغو والفحش والغيبة والنميمة والكذب وأمثالها، وعن أكل الحرام والقاذورات، والحث على تطهيرها من النجاسات). [4]

وهذا الأمر بالعناية بنظافة المظهر والمخبر لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى أن يكون تنبيها للمسلم أن يختار العبارة التي ليس فيها تشاؤم ولا دلالة على خبيث قولي أو فعلي إذا أراد أن يصف ضعف حالته النفسية, فمن ذلك قوله ﷺ: (لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي).[5] قال ابن أبي جمرة:(ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قبح فيه، والخبث واللقس وأن كان المعنى المراد يتأدى بكل منهما لكن لفظ الخبث قبيح ويجمع أموراً زائدة على المراد، بخلاف اللقس فإنه يختص بامتلاء المعدة، قال: وفيه أن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، ويدفع الشر عن نفسه مهما أمكن، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى في الألفاظ المشتركة، قال ويلتحق بهذا أن الضعيف

---

(1) صحيح البخاري، ح 5550، وصحيح مسلم، ح257، 221/1.

(2) الرحلة إلى الإسلام، ص 123.

(3) قال عنه الألباني صحيح، انظر صحيح وضعيف الجامع الصغير رقم 3939.

(4) النهاية في غريب الأثر 5 /:76. 77

(4) صحيح البخاري، ح 5826، 2286/5، وصحيح مسلم، ح 2250، 1765/4، قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر 533/4: ((لقست نفسي: أي غثت، واللقس: الغثيان، وإنما كره (خبثت) هرباً من لفظ الخبث والخبيث)).

إذا سئل عن حاله لا يقول لست بطيب بل يقول ضعيف، ولا يخرج نفسه من الطيبين فيلحقها بالخبيثين).[1]

وفوق ذلك انتقل بالفرد المسلم من الاهتمام بنظافته الشخصية إلى الأمر بالمحافظة على النظافة العامة فقد أرشد النبي الكريم ﷺ إلى العناية بنظافة الحي فقال:(إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود؛ فنظفوا أراه قال أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود).[2] قال الطيبي:(إذا تقرر ذلك فطيبوا كل ما أمكن تطييبه، ونظفوا كل ما سهل لكم تنظيفه، حتى أفنية الدار وهي متسع أمام الدار، وهو كناية عن نهاية الكرم والجود، فإن ساحة الدار إذا كانت واسعة نظيفة طيبة كانت أدعى بجلب الضيفان وتناوب الواردين والصادرين). [3]

ألم تر أن النظافة في هذا الدين تعتبر منظومة متكاملة فهي نظافة القلب والقالب نظافة الروح والبدن نظافة المسكن والملبس نظافة الحي والشارع، نظافة الثوب والفرش والأثاث، نظافة يومية وأخرى أسبوعية ... فسبحان من شرع هذا الدين الذي تضمن كل ما فيه صلاح البشر وصلاح الحياة والأحياء.

فرغ الباحث من الحديث عن القيم الاجتماعية ولم ينته مما تضمنته النصوص في هذا الباب، ولكن حسب الباحث أنه ذكر إشارات، وأومأ إلى أصول في هذا الباب توصل إلى ما سواها، وترشد إلى مثيلاتها، وبعد ذلك ينتقل البحث إلى وجهة أخرى .

المبحث الثالث: القيم الإدارية

لئن كان البحث في المباحث السابقة تناول الجانب العلمي والجانب الاجتماعي فهو هنا يتناول مبحثا لا تستغني عنه أمة، ولا تقوم من دونه دولة، ولا تنشأ بمعزل عنه حضارة، ألا وهو مبحث القيم الإدارية، والإسلام لم يهمل هذا الجانب بل أولاه عناية بالغة، ووضع أصوله وقواعده، وقد أوردت تحت ذلك ستة مطالب هي:

---

(5) فتح الباري، 564/10.

(3) سنن الترمذي 111/5، وقال عنه الألباني حديث حسن .

(4) تحفة الأحوذي 68،67/8 .

المطلب الأول: تدوين العقائد والقواعد والأحكام والمبادئ وشمولها

مما تميز به الإسلام أنه شامل لكل شيء، شامل للخالق والمخلوق، للدنيا والآخرة، للدين والدنيا، للسفر والحضر، للإنسان والكون والنبات والحيوان، شمول يتضمن القواعد والأصول والمبادئ والأحكام والأهداف، وهذا يجعل رجل السياسة والقضاء وغيرهم ممن له احتياج مباشر إلى القواعد والأحكام وسائر المسلمين في سعة من أمرهم فلا ينتظروا رأي العالم، في كل مسألة، بل لا يرجعون إليه إلا في المعضلات، ولا يفاجؤا بتغير الحكم لتغير الزمان، فهم يعرفون قواعده وأصوله ومبادئه ... فكل ما يحتاج إليه المسلم قد شمله هذا الدين قال تعالى:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ سورة الأنعام،38. وقال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ سورة يس،12، وقال عز شأنه:﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ سورة الإسراء،12. قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية:(وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه وتخلصوا له العبادة دون الآلهة والأوثان).[1]

فالحلال بين والحرام بين، والعقائد واضحة، والشرائع محكمة، والأخلاق شاملة، والأهداف دقيقة، والمثُـُـُل رائعة، وهذا الشمول والإحاطة جعلت المشركين في عهد الرسالة يستكثرون ذلك إذ لم يألفوا مثله فقالوا للصحابة إن صاحبكم يعلمكم كل شيء، فعن سلمان ﷺ قال قال لنا المشركون: إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة؟! فقال: أجل! إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة، ونهى عن الروث والعظام، وقال لا يستنجي أحدكم دون ثلاثة أحجار).[2] وأخبرنا أبو ذر عن هذا الشمول فقال:(تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يُذَكِّرُنَا مِنْهُ علماً، وقال: فقال ﷺ ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم). [3]

وقال ﷺ:(إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب).[4]

---

(1) جامع البيان49/15.

(1) صحيح مسلم، ح 224/1،262

(3) المعجم الكبير155/2، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 416/4 .

(3) صحيح البخاري،ح 52، 28/1،، وصحيح مسلم واللفظ له، ح 1599، 1219/3.

وقال تعالى موضحاً المحرمات التي حرمها على عباده ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة الأنعام151،153 . وأوضح تعالى في سورة الإسراء أصول القواعد والأحكام التي جاء بها الأنبياء ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. إلى قوله: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) سورة الإسراء 23- 39. فالقارئ يرى الإحكام والشمول ظاهراً في هذا المنهج، فالقواعد والمبادئ والأحكام التي يتطلبها دستور الدولة كاملة متوافرة في هذا الدين؛ ولذا لم تواجه الدولة الإسلامية منذ نشأتها معضلة الاتفاق على المحرمات والممنوعات والحقوق والواجبات، ولم تواجه أيضا معضلة تدوين الدستور، بل كان لديها دستور رائد عادل شامل سالم مما ابتليت به كثير من الدساتير وما يصاحب تدوينها من التقليدية والتبعية، وما يعرض لها من الزيادة والنقصان، وما تخضع له بعض مواده من إخضاعها للتجربة فترة من الزمن لقياسها لمعرفة مدى تحقيقها للغرض الذي وضعت من أجله؛ ولذا تُجرى على دساتير الدول عمليات التجديد والإضافة.

كما أن رجال الفقه والقضاء في الدولة الإسلامية لا يمكن أن ينظروا في إمكانية إباحة الزنا أو الربا أو اللواط أو الخمر ؛لأن هذا من ضمن المحرمات التي لا مساومة فيها في الإسلام، بينما نجد الدول التي تحل ذلك تعاني التردد في إباحة ذلك وسن الأنظمة التي تخفف من التبعات المترتبة على تعاطيها، فكم تعاني الدول معالجة الآثار المترتبة على الإذن بتعاطي هذه الموبقات كعلاج مرضى الأيدز والحماية منه والتوعية بخطره، والحيلولة دون قيادة المخمورين للسيارات وغير ذلك...

ولا يظن القارئ أن كون الإسلام نزل قبل أكثر من أربعة عشر قرنا أنه نظام جامد لا يستجيب لمتغير، ولا يتوافق مع محدثات العصر، بل فيه من المرونة والقابلية للإضافة والاستيعاب لكل حادثة بما

لا يتعارض مع أصوله ومبادئه وأحكامه وقواعده، وهو ما يسمى في كتب أصول الفقه (أبواب الاجتهاد ومسائله وضوابطه وحدوده). فالحمد لله الذي أتم النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً.

المطلب الثاني: كفالة الحقوق

إن هذا العصر الذي نعيشه يكاد يكون الطابع الحقوقي هو المسيطر عليه فلا تكاد تخطئك العبارات التي تطالب بحقوق الإنسان أو البيئة أو الحيوان أو غير ذلك، ولعل السبب في ذلك هو كثرة انتهاك هذه الحقوق في هذا العصر؛ فعظمت المطالبة بها، ودونت المواثيق التي تحفظها، وجرمت الدول التي تخالفها ... إلى آخره. والسبب أيضاً في انتهاك الحقوق في هذا العصر هو بعد الإنسان عن الشريعة الإلهية التي كفلت الحقوق، وغلبة المصالح الشخصية والعرقية والوطنية على المحافظة على الحقوق.

والمطلع على الشرائع الإلهية يعلم أن غاية الرسالات الإلهية من آدم إلى نبينا محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام هي حفظ الحقوق، ورفع المظالم، ولا غرو أن أكد نبينا محمد ﷺ هذا الجانب أعظم تأكيد، فبين الحقوق وعظم شأن وفائها، وحذر من نقصها وتطفيفها، وجاءت الأدلة عامة وخاصة، عامة تؤكد على الوفاء بالحقوق، وخاصة تبين حق كل ذي حق، وتؤكد الوفاء بها، وتذكر عاقبة الإخلال بها، وأعظم هذه الحقوق التي جاءت الشرائع الإلهية بالتوكيد عليها هو حق الله سبحانه وتعالى، ثم حقوق المخلوقين بعضهم على بعض، سواء كان هذا المخلوق رجلاً أو امرأة، طفلاً أو كبيراً، عاقلاً أو سفيهاً أو مجنوناً، عدواً أو صديقاً، مسافراً أو مقيماً مواطناً أو وافداً، حيواناً أو طيراً أو جنياً، أو بيئة... فقد كفلت حقوقهم كلهم كفالة لم تبلغها المواثيق الدولية المعاصرة، وسأذكر بعض النصوص الدالة على حفظ هذه الحقوق ولن أستعرض كل الأدلة المتعلقة بكل ذي حق وكيف حفظ له؛ لأن ذلك يطول بنا ولن نستطيع الإحاطة به، ولكن يكفي موضع الشاهد، ومحل الحجة. وفيما يلي ذكر لأهم هذه الحقوق، فمن ذلك:

أولا:حق الخالق سبحانه وتعالى، فحقه أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويعبد فلا يجحد، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: يا معاذ! قلت لبيك وسعديك ثم قال مثله: ثلاثاً هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت لا. قال حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة فقال يا معاذ! قلت: لبيك وسعديك قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألاُ

يعذبهم).[1] وبين سبحانه وتعالى أنه خلق الخلق لهذه الغاية فقال جل ثناؤه:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات،56. وليست عبادته سبحانه وتعالى قاصرة على أداء شعيرة في معبد مرة كل يوم أو كل أسبوع؛ بل عبادته أشمل من ذلك، فعبادته تتناول اتباع شرعه ولزوم منهجه، والتقرب إليه بكل ما يحبه ويرضاه، وإن أعظم حقوقه على عباده إفراده سبحانه وتعالى بحق التشريع فهو المشرع سبحانه وتعالى, قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ سورة الشورى،21. وهذا الحق جعلته المدنية اليوم من خالص خصائصها، وهو تعد على مقام الربوبية. فالله هو الذي يشرع الدين ويشرع الأحكام التي يتحاكم إليها البشر في كل شؤونهم .

الثاني: حق الأنبياء، وحقوقهم على أتباعهم كثيرة ومنها تصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وألا يعبدالله إلا بما شرعوا وبلغوا، وأن ننتهي عما نهوا عنه، والمسلم يعتقد الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ويوقرهم ويحترمهم ويعتقد أنهم رسل الله حقاً، قال تعالى:﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ سورة البقرة،285. وأن على المرء طاعتهم قال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ سورة النساء،64.

الثالث: حق الوالدين على أولادهما، هذا الحق حق عظيم في هذا الدين العظيم، ويكفي أن يقرن الله طاعتهما بطاعته، ويقرن الشرك به بوجوب طاعتهما والإحسان إليهما قال جل ثناؤه:﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ سورة الإسراء،23،24. وقال عز من قائل﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ سورة الأنعام،151.

الرابع: حق الولد على الوالد، حقوقه كثيرة ومتعددة، فأول حق للطفل قبل أن يولد أن يختار له الأم، وأن يطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس، وأن يحسن تسميته وأدبه، وأن يعق عنه، وأن يعلمه التعليم المناسب، وينشئه التنشئة الطيبة وأن يدله على الخير وأي خير أعظم من أن يدله على الدين الصحيح

(1) متفق عليه من حديث أنس، صحيح البخاري، ح 5912، 2312/5، وصحيح مسلم، ح 30، 58/1.

بأدلته وبراهينه؛ لئلا ينشأ مقلداً، ومن حقه الإنفاق عليه وتزويجه إذا بلغ والدعاء له بالخير والحب والعطف والشفقة ... إلخ وقد آثرت ألا أذكر لكل مسألة هنا دليلاً لئلا يطول المقام.

الخامس: حق الزوجين كلاً منهما على الآخر، وهذا الحق من أكثر المسائل تكرراً في لسان الشرع وسأكتفي بذكر ثلاث آيات كريمات فقط اشتملت على بلاغة في العبارة، واستيفاء للحقوق، وامتنان من الله على عباده بعظم هذه النعمة أي رباط الزوجية، وهي كالتالي:

الآية الأولى: قال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الروم،21. وليتأمل القارئ الكريم قوله (من أنفسكم) وقوله (لتسكنوا إليها) فجعل السكن إليها وليس معها وهذا أبلغ.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ سورة البقرة، 187. فعبر عن كل من الزوجين تجاه الآخر بأنه لباس له، وهل هناك ألصق من اللباس للجسد فلا يفارقه، وهو مناسب له، ومباشر له، وهو معه في كل أحواله.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ سورة النساء،19. فأرشد إلى أن تكون العلاقة بين الزوجين بالمعروف أي ما تعارف الناس عليه أنه معاشرة معروفة طيبة مقبولة.

السادس: حق الإنسان على أخيه الإنسان، أن يلقاه بوجه طليق، قال ﷺ:(لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) [1]، وأن يسلم عليه حين يلقاه، وأن يزوره إذا مرض، وأن يجيبه إذا دعاه، وأن يتبع جنازته إذا مات، قال ﷺ:(حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس) [2] وأن يكف عنه أذاه، ولما سأل الصحابة الرسول ﷺ عن أي الإسلام أفضل فقال ﷺ:(من سلم المسلمون من لسانه ويده)،[3] وأن يحترم ماله وعرضه ودمه ودينه؛ ولذا أعلن النبي الكريم ﷺ في أعظم جمع حضره الصحابة الكرام رضي الله عنهم عن هذه الكليات فقال في إحدى خطب حجة الوداع:(إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا نعم، قال اللهم فأشهد ثلاثاً، ويلكم

(1) المرجع السابق، ح 2626، 2026/4.

(2) صحيح البخاري ح 1183، 418/1، وصحيح مسلم، ح 2162، 1704/4.

(3) صحيح البخاري، ح 1،13/11، وصحيح مسلم، ح 1،65/40.

أو ويحكم انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).[1] وقال ﷺ:(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه). [2] إلى غير ذلك من الحقوق التي يطول المقام بتعدادها، وإنما القصد ذكر الشاهد.

السابع: حق الجوار وأكثر جبريلُ عليه السلام من الوصية بشأنه حتى ظن الرسول ﷺ أنه سيكون له نصيب في الميراث، قال ﷺ:(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثنه) [3] . وبين القرآن أن الجيران ثلاثة: من له حق الجوار والقربى والإسلام، ومن له حق الجوار والإسلام ومن له حق الجوار فقط قال تعالى:﴿وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ سورة النساء،36. وحرم أذية الجار وبين أنها أعظم حرمة من أذية غيره، وإن كانت كلها محرمة فقال عليه السلام:(والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل ومن يا رسول؟ الله قال الذي لا يأمن جاره بوائقه).[4]

هذه بعض الحقوق التي جاء بها الإسلام، وهناك حقوق أخرى آثرت عدم الحديث عنها مخافة أن يطول البحث ومن ذلك: حق العالم، وحق عابر السبيل، وحق المسكين، وحق الأرملة، وحق اليتيم، وحق السائل، وحق السفيه والمجنون، وحق العدو، وحق الحيوان والطير والجن، وحق البيئة. ومن تتبع نصوص الكتاب والسنة وجد من ذلك الشيء الكثير، وكذلك من يرجع إلى المؤلفات في مجال حقوق الإنسان في الإسلام وهي كثيرة سيجد من ذلك خيرا كثيرا.

المطلب الثالث: تنمية المال والمحافظة عليه

(1) صحيح البخاري، ح 4141، 1598/4، وصحيح مسلم، ح 1218، 889/2.

(2) المرجع السابق،ح2564، 1986/4

(3) المرجع السابق، ح 2624، 2025/4.

(4) صحيح البخاري، ح 5670، 2240/5، واللفظ له، وصحيح مسلم، ح 46، 68/1.

المال هو عصب الحياة وشريان الاقتصاد، وقوام الناس قال تعالى:﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ سورة النساء،5. ولذا نهى الله عباده عن إيتاء أموالهم للسفهاء الذين لا يعرفون كيف يديرون المال ويحافظون عليه.

والمال في نظر المسلم هو مال الله آتنا الله إياه لنعمل به وفق ما أمر به، قال جل ثناؤه:﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ سورة النور، 33. ابتلاءً واختباراً لينظر كيف نعمل، قال تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ سورة يونس،14. وأذن في البيع والشراء الذي فيه تنمية المال فقال سبحانه وتعالى:﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ سورة البقرة، 275. وقال جل ثناؤه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الجمعة،9-10. فليس غرض البيع فقط تحصيل القوت الضروري، فالإسلام لا يمنع من طلب الغنى والكسب الحلال؛ ولذا قال ﷺ:(لا بأس بالغنى لمن اتقى).[1]

على أن يكون هذا البيع موافقاً للشريعة خالياً من الربا والغش والخديعة والجهالة والغرر[2] والضرر بالبائع أو المشتري، وأن لا يكون مسروقاً ولذا قال ﷺ:(وإن هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع). [3] وقال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه:(يا عمرو! نعم المال الصالح للرجل الصالح).[4] وأذن في الأكل منه بغير إسراف ولا تقتير، فقال تعالى:﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ سورة الأعراف،31. وشرع لمن آتاه الله مالاً أن يظهر عليه أثر هذه النعمة فعن أبي

---

(1) سنن ابن ماجه 724/2، قال البوصيري مصباح الزجاجة 5/2: ((هذا إسناد صحيح رجاله ثقات))، وقال الألباني في تعليقه على السنن: صحيح، والمستدرك على الصحيحين، 3/2، وقال الحاكم: ((هذا الحديث مدني صحيح الإسناد ولم يخرجاه))، وقال الذهبي في التلخيص: ((صحيح))، وصححه الألباني في الصحيح 285/1 .

(2) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر661/3 : ((الغرر: هو ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول. وقال الأزهري: بيع الغرر: ما كان على غير عهدة ولا ثقة، وتدخل فيه البيوع التي لا يحيط بكنهها المتبايعان من كل مجهول)).

(3) صحيح البخاري، ح6063، 2362/5.

(4) المسند للإمام أحمد197/4 وقال محققو الموسوعة الحديثية: إسناده صحيح على مسلم، والمستدرك على الصحيحين3/2 وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وكذا قال الذهبي في التلخيص، ومصنف ابن أبي شيبة 467/4.والمعجم الأوسط292/3.

الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ فرآه رسول الله ﷺ أشعث أغبر في هيئة أعرابي فقال ما لك من المال؟! قال من كل المال قد آتاني الله، قال إن الله إذا أنعم على العبد نعمة أحب أن ترى به).[1] وهذا الإظهار لأثر نعمة المال على صاحبه يجب ألا يبلغ به حد الكبر؛ ولذا لما نهى الرسول ﷺ عن الكبر ظن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن ذلك يستلزم إهمال المظهر فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر! قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس). [2] وندب الله إلى إنفاقه في مصارفه المشروعة، فدعا إلى الإنفاق دعوة عامة فقال سبحانه وتعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ سورة الحديد،7. وبين أن في أموال الأغنياء حقاً للسائل والمحروم فقال جل ثناؤه:﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ سورة الذاريات،19. كما أوجب في سائر الأموال زكاة تؤدى إلى أصحابها كما أوضحتها دواوين السنة وفصلت القول في أنصبتها ومقاديرها، وبين القرآن مصارف هذه الزكوات وقصرها عليهم لئلا تتدخل الأهواء فتحول بين أصحاب الزكاة المستفيدين منها وبين حقهم في هذا المال.

المطلب الرابع: العدل

العدل ضد الجور وما قام في النفوس أنه مستقيم. وقيل العدل مصدر بمعنى العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق.[3] وهذا الأمر العظيم في نفسه، العظيم في أثره أوجبه الله على نفسه، وأوجبه على عباده، وحرم عليهم الظلم قليله وكثيره، وما ذاك إلا لأن الحياة لا تستقيم مع الجور والظلم، وإن استمرت على الضيق والشظف وقلة ذات اليد، والدول والممالك والحضارات لا تقوم إلا على نظام من العدل، ومساواة في الحقوق، وصيانة للعهود، وما لم يستيقن المحق أنه سينال حقه كاملاً، ويعلم الظالم أنه سيردع عاجلاً؛ فلن تقوم حضارة ولن يستقيم نظام دولة، ولن يستتب أمن.

ومن أجل ذلك جاءت نصوص القرآن والسنة متوافرة على الأمر بالعدل، وتحريم الظلم، ومبينة عاقبة الإنصاف، ومحذرة من مغبة الجور، وواصفة مآل الظالمين، ومبشرة بفوز المنصفين في الدنيا والآخرة، ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه فقال:(يا عبادي! إني حرمت الظلم على

---

(1) تقدم تخريجه.

(3) صحيح مسلم،ح1،91/93.

(4) القاموس المحيط، مادة عدل 1331/1. ولسان العرب 340/11، التعريفات 192/1، وانظر الحدود الأنيقة 73/1.

نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ... يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه). [1]

وقام النبي ﷺ بالعدل خير قيام فها هو في مرض موته الذي يعلم أنه بعده مفارق لهذه الحياة ويخشى أن يلقى ربه وعنده لأحد مظلمة، يخرج من بيته يتكئ على ابن عمه الفضل بن عباس ويتهادى حتى يصل إلى المسجد ويجلس على المنبر ونترك الفضل بن عباس يحدثنا هذا الحديث فيقول:(أتاني رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً وقد عصب رأسه، فقال خذ بيدي يا فضل! فأخذت بيده حتى قعد على المنبر ثم قال فذكر الحديث إلى أن قال: من قد كنتُ أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه. فقام رجل فقال: يا رسول الله! إن لي عندك ثلاثة دراهم فقال: أما أنا فلا أكذّب قائلاً، ولا أستحلف على يمين، فيم كانت لك عندي؟ قال: أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم؟ قال أعطه يا فضل). [2]

وفي عهده الشريف ﷺ وقعت حادثة سرقة، والسارقة من بنى مخزوم، من قريش وهي القبيلة التي ينتسب إليها الرسول ﷺ، وبنو مخزوم منهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي كان من أعظم القادة العسكريين في عصره ﷺ ، وهنا يرجع المجتمع إلى معالجة الحادثة وفق ما كان لديهم في الجاهلية من معالجات خاطئة تحابي الشريف، وتستقصي الحق من الوضيع، ويبحثون عمن يشفع لها بين يدي الرسول ﷺ فيُقترح على حبه وابن حبه أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن يكلم الرسول ﷺ في هذا الأمر فحينئذ غضب الرسول الكريم ﷺ على المعالجة الخاطئة الظالمة وبيّن أن هذا التعسف سبيل الأمم البائدة، فعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من بني مخزوم سرقت فقالوا من يكلم فيها النبي ﷺ فلم يجترئ أحد أن يكلمه، فكلمه أسامة بن زيد فقال:(إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، لو كانت فاطمة لقطعت يدها) [3] فبين ﷺ أن الحق يجب أن يطبق على جميع أفراد الرعية حتى لو كانت السارقة هي ابنته فاطمة رضي الله عنها، وحاشاها أن تسرق.

---

(1) صحيح مسلم، ح 2577، 1994/4.

(2) السنن الكبرى للبيهقي 6 / 74 . وهذا الحديث أصله في البخاري انظر الحديث رقم 3816، 1486/6 .

(3) صحيح البخاري، ح 3526، 1366/3.

وهذا العدل واجب مع القريب والبعيد ومع العدو والصديق حتى وإن ظلم فلا يسوّغ ظلمه تعدي الحق فيه، قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ سورة المائدة،2. وقال جل ثناؤه مذكراً عباده أن الواجب العدل وإن كان الذي عليه الحق قريباً فقيراً أو غنياً كريماً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ سورة النساء،135.

وبعدما اتسعت الدولة الإسلامية وتعاظمت رقعتها وفتح القائد قتيبة رحمه الله مدينة سمرقند وأسكن فيها بعض المسلمين دون أن يستشير أهلها الأصليين؛ فساءهم هذا التصرف فقدم وفد منهم إلى الخليفة وشكوا إليه ما لقوا من قائده فأخبروه أن قتيبة أسكن مدينتهم المسلمين، ولم يستشرهم في ذلك، فكتب عمر إلى عامله بأن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروه فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم القاضي جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين، ثم لما رأوا أن الأمر أصبح بأيديهم أقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم. [1]

المطلب الخامس: القوة

التعريف: القُوَّةُ: خلاف الضعف. والقُوَّةُ: الطاقة من الحبل، وجمعها قِوًى. ورجل شديد القوى، أي شديدُ أسرِ الخَلْقِ.[2]

القوة مقوم من مقومات الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا بها، وهي من علامات صحة الأفراد والأمم، وبها تحفظ الحقوق وتدفع المظالم، وترهِبُ العدو، وتستكمل الأهداف، وينعم المجتمع بأسباب النعيم

(1) الخراج وصناعة الكتابة 1 /408 -409 .

(2) الصحاح في اللغة، مادة قوا.وانظر الجمهرة، مادة قوا، ولسان العرب. مادة قوا.

والرفاهية، وينال من كل أمر غايته؛ ولذا ترى الدول القوية لديها تعليم راق، ومستشفيات متكاملة وجيوش جرارة، وتواصل واتصال مع العالم على أعلى مستوى ...

والقوة في الإسلام لحفظ حقوق الأمة والأفراد، ودفع أطماع المغرضين والمتربصين، وهي تسهم في تحقيق بسط السيادة الإلهية وأن يكون الدين كله لله، ويكون خضوع البشر لله لا لجنس أو عنصر أو مصلحة أو غير ذلك، وأن ينال المجتمع كل متطلبات الحياة الكريمة التي تسهم في إسعاده وتدفع عنه غوائل الفساد والشر ... فهي في الإسلام عنصر بناء وركيزة عطاء،، وسبيل لحفظ العدل وعدم طغيان عنصر على آخر، وإن وجد في تاريخ الإسلام استغلال للقوة لغير ذلك فهو نشاز ولا يقره الإسلام، ولا تعتبر القوة نافعة في هذا الدين ما لم تكن معها الأمانة فيكون الرجل قوياً أميناً، وتكون الأمة قوية أمينة، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ سورة القصص،16.. أما القوة في غيره فهي في الغالب لتحقيق مآرب وأطماع جنس على حساب جنس آخر، أو لتحقيق مصالح دولة على أخرى، ومن أجل ذلك تنشأ الحروب وتتقاتل الدول وتتضرر الشعوب، وكم اكتوت البشرية بالحروب التي من هذا النوع كالحربين العالميتين الأولى والثانية، وكالحرب الباردة وكم أفنيت من شعوب وأبيدت من دول من أجل طغيان القوة، وبغي الأقوياء الذين لا يرعون حرمة ولا يحفظون ذمة، ولا يردعهم قانون ولا يخشون تقلب الحياة.

والإسلام الذي جاء شاملاً لكل عناصر ومقومات الحياة الكريمة أعطى هذا الجانب ما يستحقه من البيان والدلالة عليه، فتنوعت النصوص الشرعية التي تناولت هذا الجانب، ومن نظر فيها – وهي كثيرة جداً – وجد أن الله أمرنا أن نعد العدة اللازمة ونتخذ القوة التي يتطلبها الحال قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ سورة الأنفال،60. وأرشد الرسول ﷺ إلى أعظم أسباب القوة بل أنكى أنواعها في ميدان الحرب فقال:(ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي) وحذر الرسول ﷺ أيضاً من تعلم الرمي ثم تناسيه فقال:(من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى) [1] وحينما تنظر اليوم في واقع الصدامات العسكرية تجد أن الشأن كل الشأن في ذلك للرمي فالصواريخ والقاذفات والقنابل والرمي بالبنادق هي التي عليها الاعتماد في الهيمنة العسكرية، والرسول ﷺ قال هذا في وقت كان المؤثر في معاركه السيف والرمح والسهم، ولم تصنع بعد البنادق وغيرها؛ فقوله هذا يدل على إعجاز نبوي حيث أرشد إلى العناية بالرمي وبين أنه هو القوة الحقيقة.

(1) الحديثان في صحيح مسلم،ح 1917، و1919 3/ 1522 .

وهذه القوة التي أمرنا باتخاذها والإعداد لها هي في دين المسلم حفظ للحقوق وردع للبغي والعدوان، إنها قوة تجنح إلى السلم، وتهفو إلى العدل؛ ولذا أرشد الله سبحانه عباده بعد الآية التي أمر هم فيها باتخاذ القوة إلى أن يجنحوا للسلم إن جنح إليه المخالف فقال تعالى:﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ سورة الأنفال،61.

ومن نظر في النصوص الشرعية وجد أن الله أمر نبيه هوداً أن يأمر قومه بطاعة الله وبالاستغفار من الذنوب والتوبة منها حتى يزيدهم الله قوة إلى قوتهم فقال جل ثناؤه:﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ سورة هود. وهذا توجيه لقوم هود وهو لكل قوم بعدهم كما هي عادة القرآن في ذكر الوصايا الإلهية.

وبين النبي الكريم ﷺ أن الإنسان ينبغي أن يحرص على كل ما ينفعه في دينه ودنياه؛ لأن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي هذا يقول ﷺ:(المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا؛ ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان). [1]

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على قوله ﷺ:(احرص على ما ينفعك):(سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على مالا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص؛ فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

وقال أيضاً شارحاً قوله ﷺ:(واستعن بالله) لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده ويستعين به. وقال غيره استعن بالله أي اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره، كما قال تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول). [2]

---

(1) المرجع السابق،ح2664،2052/4.

(2) فتح المجيد394،395.

وفي هذا الحديث حذر النبي ﷺ من أن يقع الإنسان فريسة للوساوس والخطرات التي تجلب اليأس والقنوط إذا وقعت المقادير التي قد لا تتوافق مع ما تهواه النفس، وبين أن قول الإنسان إذا وقع المحذور (لو) لا يفيده وإنما يفتح عليه باب الندم والحسرات، وقال القرطبي في المفهم:(المراد من الحديث الذي أخرجه مسلم أن الذي يتعين بعد وقوع المقدور: التسليم لأمر الله، والرضا بما قدر، والإعراض عن الالتفات لما فات؛ فإنه إذا فكّر فيما فاته من ذلك فقال لو أني فعلت كذا لكان كذا، جاءته وساوس الشيطان، فلا تزال به حتى يفضي إلى الخسران، فيعارض بتوهم التدبير سابق المقادير، وهذا هو عمل الشيطان المنهي عن تعاطي أسبابه بقوله: فلا تقل لو فإن لو تفتح عمل الشيطان). (1)

ونخلص من هذا أن الحديث تضمن أربعة أمور:

1- أن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.
2- أن المسلم مأمور بطلب ما ينفعه .
3- أن يستعين المرء بربه ولا يعجز .
4- إذا أصابه ما يكره فلا يندم ويلتفت إلى الماضي ويتحسر على ما فات، بل يأخذ منه الدرس ويجدّ في طلب ما أراد، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال ذلك الرسول ﷺ .

وحيث طُلب من المسلم أن يكون قوياً فقد تضمنت نصوص الشرع الدلالة على أسباب القوة ليأخذ بها والتحذير مما يناقضها ومن ذلك:

الأول: أن يعلم أن الله هو القوي المتين فيلجأ إليه ويستمد منه العون والتوفيق، وأمر أن يقول في كل أحواله لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا يشعره أنه لا يستطيع أن يتحول من حال إلى حال ولا يجد قوة إلا من الله سبحانه وتعالى؛ ولذا فالمسلم لا يرهب قوة مهما عظمت؛ لأنه يعلم أن أزمّة الأمور بيديه سبحانه وتعالى. وخير شاهد على ذلك مواقف الأنبياء عليهم السلام مع الجبارين والمتكبرين فإبراهيم يجادل النمرود، وموسى يجادل فرعون، ومحمد يجادل الملأ من قريش ويخرج هؤلاء منتصرين على الرغم من قوة الخصم وتكامل عدته واستعداده، وكلهم كان لسان حاله كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا لقومهم:﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

(1) فتح الباري 13 / 228 .

الْمُتَوَكِّلُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ سورة إبراهيم،12-14.

الثاني: أن يأخذ الشرائع والأوامر بقوة غير متوان ولا هياب قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ سورة الأعراف،145. وذكّر الله بني إسرائيل على لسان رسولنا محمد ﷺ بما أخذ عليهم فقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة،63. وأخبرنا سبحانه أنه أمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة ويعمل به قال تعالى:﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ سورة مريم،12.

وهذا الأمر بالأخذ بالقوة كما أنه يتجه إلى الشرائع والأوامر فهو أيضا يتجه إلى جميع مناحي الحياة فينبغي أن تؤخذ بقوة فيعمل الإنسان فيما يحقق مصالحه ومصالح أمته من غير تكاسل أو تراخ.

الثالث: أن يبذل الأسباب ويتوكل على الله سبحانه وتعالى، فلا توكله يمنعه من أخذ الأسباب، ولا معرفته بتأثير الأسباب يجعله يتعلق بها ويستغني عن ربه؛ ولذا لما قال رجل للرسول ﷺ أرسلُ ناقتي وأتوكل؟ قال: أعقلها وتوكل.[1] فأمره أن يبذل السبب ويتوكل على الله.

الرابع: الرضا بالنتائج التي تؤول إليها اجتهاداتنا والرضا كذلك بما نصاب به من المصائب، لأن المسلم يعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن أجل ذلك فلا تدفعه المصائب والاجتهادات الخاطئة إلى القعود والعجز والكسل.

وهذا الأمر والذي قبله يجعل المسلم مقداماً لا يرهب، وشجاعاً لا يجبن، ويمنحه الطمأنينة في سائر أعماله، لإيمانه العميق بأن الله هو المقدر، وهو وحده المعين، وهو الموفق والمسدد سبحانه وتعالى.

الخامس: التحذير من تضييع أمر الله فإذا ضيع البشر أمر الله وعصوا رسله فحينئذ يتنزل عليهم العذاب، وهذه سنة ربانية لا تتخلف ولكنها قد تتأخر لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.

---

(1) سنن الترمذي668/4 وقال: ((قال يحيى: [أي: ابن سعيد القطان، الإمام، أحد رجال إسناد هذا الحديث] وهذا عندي حديث منكر. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث أنس بن مالك إلا من هذا الوجه. وقد روى عن عمرو بن أمية الضمرى عن النبي ﷺ نحو هذا))، وصحيح ابن حبان 510/2، وقال العراقي في تخريج الإحياء 1131/2: ((ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري، بإسناد جيد بلفظ: قيدها)).

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ سورة إبراهيم،13،14.وقال جل ثناؤه مرشدا الأحياء إلى مصير السابقين ومآلهم:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ سورة محمد،10. وكل فساد في العالم فسببه مخالفة أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ سورة الروم،41.

السادس: التحذير مما ينقض القوة ويذهبها والذي ينقضها أمران:

أحدهما: الاختلاف والتفرق قال تعالى:﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ سورة الأنفال،46. والمراد بالريح القوة في الحرب [1] فالاختلاف يذهب بالقوة، ويورث الضعف، هذا على مستوى المجتمع، أما على مستوى الفرد فقد حذر الله من التردد بعد العزم، قال تعالى:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ سورة آل عمران،159.

الثاني: الاغترار بالقوة والكثرة؛ لأن ذلك يفضي إلى ترك التوكل على الله، كما أنه يؤدي إلى الاستهانة بالمقابل، قال سبحانه وتعالى لنبيه وصحابة نبيه ﷺ:﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين. ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة التوبة،25،26.وأخبر عن مصير الأمم الماضية التي استكبرت واغترت بقوتها وكثرتها فلم تغن عنها من الله شيئا فقال سبحانه:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ سورة فاطر،44.

المطلب السادس: احتمال المخالف

أن تتحمل النفسُ القريبَ منها فتصبر على جهله، وتسكت على سفهه، وتتغاضى عن تقصيره، وتحسن إليه وإن ظلم ... فهذا أمر مألوف في عرف البشر، أما أن تتحمل النفسُ العدوَ فتعدل معه، وتصبر على تطاوله، وتعفو عنه، وتحسن إليه وترحمه... إلى غير ذلك مما لا تتسامى إليه إلا الأنفس الزكية، فهذا لم يعهد في تاريخ البشر إلا ممن ساروا على المنهج الإلهي القويم الذي شرعه ودعا إليه، ولأن الإسلام شرعته ومنهاجه فقد تضمن أكمل بل أسمى تعامل مع المخالف، وفي التوجيهات

(1) فتح الباري 163/6

القرآنية والنبوية منهج راشد، وسنة متبعة ونماذج رائعة ضربت أروع الأمثلة في احتواء المخالف والإحسان إليه فمن ذلك:

وجوب العدل مع العدو وإن جار وظلم قال تعالى:﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ سورة المائدة،2. أتدري متى نزلت هذه الآية الكريمة التي تضمنت هذا التوجيه السديد؟! إنها نزلت عقيب أن صدّ عبدة الأصنام الرسولَ ﷺ وأصحابَه الكرام عن أن يطوفوا بالبيت العتيق ويعبدوا ربهم عنده، أرأيت كيف كان التوجيه الإلهي عظيماً وحاسماً في توجيه الرسول ﷺ وصحبه إلى توخي العدل، والحذر من أن يدفعهم بغضهم لعدوهم إلى تجاوز الحد، وانظر كيف ختمت الآية بالأمر بلزوم التقوى، والتذكير بأن الله شديد العقاب، قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآية:(ولا يحملنكم بغض قوم لأن صدوكم عن المسجد الحرام أيها المؤمنون أن تعتدوا حكم الله فيهم فتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم).[1] وهذا العدل مع المخالف لا يورث الذل والاستكانة؛ لأنه سبحانه شرع استيفاء الحقوق، وندب إلى العفو كما هو مبسوط في موضوع (العدل) من هذا البحث.

ومع أن الإسلام شرع العدل مع المخالف فقد شرع بل أوجب على المسلمين أن يقدموا الهداية لغيرهم ليشاركوهم هذا الخير العظيم لأن الرسالة الخاتمة رسالة لجميع البشر، ليست رسالة خاصة أو عنصرية أو وطنية، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس كافة:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ سورة الأعراف،158. وقارن هذا ولا سواء مع موقف المسيح عليه السلام مع المرأة التي طلبت منه أن يشفي ابنتها، فكان هذا الموقف كما يرويه كتاب الأناجيل (لأَنَّ امْرَأَةً كَانَ بِابْنَتِهَا رُوحٌ نَجِسٌ سَمِعَتْ بِهِ، فَأَتَتْ وَخَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. 26وَكَانَتْ الامْرَأَةُ أُمَمِيَّةً، وَفِي جِنْسِهَا فِينِيقِيَّةً سُورِيَّةً. فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُخْرِجَ الشَّيْطَانَ مِنِ ابْنَتِهَا. 27وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهَا:«دَعِي الْبَنِينَ أَوَّلاً يَشْبَعُونَ، لأَنَّهُ لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ».مرقس:7 26-27.وفي متى (لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَب، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ، لِئَلاَّ تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ فَتُمَزِّقَكُمْ). متى 6:7.

ولأن رسالة المسيح كانت خاصة لبني إسرائيل ولم تكن للناس عامة، كما نقل عنه متى أنه حدد نطاق رسالته فقال:(هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً:«إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ

(1) جامع البيان66/6.

لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ) متى 10: 5،6. لذلك تصرف هذا التصرف .

وكما شرعت دعوته إلى الإسلام فقد أمرنا بالصبر على المخالف إذا جهل، والحلم عنه إذا سفه، وفي موقف الرسول ﷺ مع الحبر اليهودي زيد بن سُعْنَةَ الذي تطاول على الرسول ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم، وإذا أردت أن تعرف أبعاد خطورة هذا الموقف فلا يغب عن ذهنك أن محمدا ﷺ هنا هو الرسول ورأس الدولة وبين ملأ من أصحابه، وهذا المتطاول من غير جنسهم، بل من غير دينهم، ومع ذلك فقد كان حلمه ﷺ معه سبيلاً إلى هدايته للإسلام، وهذه تفاصيل هذا الخبر الصحيح العجيب الذي يرويه أهل السنن، فعن عبدالله بن سلام قال: إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعنة قال: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت[1] إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكنت ألطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه من جهله، قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله ﷺ يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال: يا رسول الله! إن بصرى بقرب قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت، فنظر إلى رجل إلى جانبه أراه علياً، فقال يا رسول الله ما بقي منه شيء، قال زيد بن سعنة فدنوت إليه فقلت: يا محمد! هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا. فقال لا يا يهودي ولكني أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا، ولا تسمي حائط بني فلان، قلت نعم فبايعني، فأطلقت همياني [2] فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل وقال أعجل اعدل عليهم وأعنهم بها، قال زيد بن سعنة فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في

---

(1) علامات النبوة التي عرفها الحبر زيد والتي طلبها قد قرأها زيد في التوراة والإنجيل؛ ذلك أن خبره ﷺ لا يزال مذكورا في كتبهم، وقد صنف الذين اهتدوا من علماء اليهود والنصارى مصنفات كثيرة يذكرون فيها هذه النصوص، فمن هذه الكتب: إفحام اليهود للسموأل المغربي، وكتاب الدين والدولة في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ لعلي بن ربّن الطبري، وتحفة الأريب لأنسلم تورميدا الذي أسلم وتسمى بعبد الله الترجمان، ومحمد في الكتاب المقدس لعبد الأحد داود، وكل هؤلاء كانوا يهودًا أو نصارى ثم أسلموا وصنفوا هذه المصنفات .

(2) الهميان هو المنطقة وكيس النفقة الذي يشد في الوسط. القاموس المحيط، مادة هيمن.

نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي، فو الله ما علمتكم بني عبدالمطلب لمطل، ولقد كان لي لمخالطتكم علم، ونظرت إلى عمر وإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتصنع به ما أرى؟! فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم!. ثم قال: يا عمر! أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه، اذهب به يا عمر فأعطه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رُعْته، قال زيد فذهب بي عمر فأعطاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رُعْتك، قال وتعرفني يا عمر؟! قال. لا فما دعاك أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت وقلت له ما قلت؟ قلت يا عمر لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد أختبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وأشهدك أن شطر مالي – فإني أكثرها مالاً – صدقة على أمة محمد. قال عمر أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم. قلت: أو على بعضهم. فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا اله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة). [1]

فتأمل هذا الخبر العجيب وكيف انتهى به الحال فقد جاء مختبراً، ورجع مسلماً، وعاش داعياً إلى الله متابعًا لسنة الرسول ﷺ حتى توفي وهو يجاهد في سبيل الله.

وهذا عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كان رأساً في التحريض على الرسول ﷺ وهو الذي خذّل عنه ورجع عنه بثلث الجيش يوم أحد [2] لما توفي صلى عليه الرسول ﷺ واستغفر له ففي الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لما مات عبدالله بن أبي بن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ ليصلي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي على ابن أبي؟ وقد قال يوم كذا كذا وكذا وكذا قال أعددُ عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني يا عمر! فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال

(1) الأحاديث المختارة 446/9- 448، والمستدرك على الصحيحين 700/3، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من غرر الحديث، وصحيح ابن حبان 523/1، والسنن الكبرى للبيهقي 52/6.

(2) ينظر مصنف عبد الرزاق 365/5، وتفسير القرآن العظيم 401/1.

فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف). [1] ثم شهد جنازته وأعطى الرسولُ ﷺ ابنه قميصه ليكفنه به لعل الله أن يخفف عنه، فانظر إلى عظِم هذا التعالي عن الزلل ونسيان الأذى كيف والرجل قد ولّى ومات ودفن فلا يرجى خيره، ولا يخشى شره، لكنها النفوس الأبية تأبى إلا السمو والإحسان إلى الناس، وتحمل أذاهم والصبر عليهم، وقد طفحت كتب السنة والسيرة النبوية بمواقف للرسول ﷺ من زعماء أو أفراد مشركين عادوه وحاربوه فوقف من هؤلاء الموقف الذي يمليه الشرع، ويقتضيه العقل، ويوجبه السلوك السديد.

وليس الصبر على المخالف هو كل ما يندب إليه المسلم بل شرع له أن يرحمه ويسعى في إنقاذه ونجاته من النار، وقد كان ﷺ يتعب نفسه في سبيل هداية غير المسلمين؛ ولذا قال له الله جل في علاه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ سورة الكهف،6. وقال سبحانه وتعالى:﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ سورة فاطر،8. وفي الخبر التالي ما يبين للقارئ حرصه الشديد ﷺ على هداية المخالف إلى آخر لحظة فقد كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه، فقال له:(أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار). [2]

ونفائس هذا المنهج الإلهي في التعامل مع المخالف لا تنتهي ولن يسعها هذا الموضوع المختصر، وإنما نذكر ما يرغّب القارئ في الاستزادة من التعرف على عقائده وأحكامه ومبادئه وقيمه، ومن ذلك أن الله شرع لمن اعتُدي عليه وكان قادراً على استيفاء حقه، وكان المعتدي أهلاً للعفو، ويصلحه العفو والإحسان–أن يعفو المعتدى عليه قال تعالى: ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الشورى،40. ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ النحل،126؛ ولذا لما دخل الرسول ﷺ مكة منتصراً وبين يديه من كانوا يؤذونه ويقتلون أصحابه واضطروهم جميعاً إلى الهجرة من مكة قال لهم الكلمة المشهورة حين اجتمعوا في المسجد:(ما ترون أني صانع بكم؟! قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال اذهبوا فأنتم الطلقاء). [3]

---

(1) صحيح البخاري، ح 4394، 1715/4.

(2) المرجع السابق، ح 1290، 455/1.

(3) تقدم تخريجه.

والتعامل مع المخالف لا يقف عند هذا الحد بل جاء التوجيه الإلهي بالبر والإحسان إلى المخالف الذي لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ سورة الممتحنة،8. قال ابن جرير رحمه الله:(وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم). [1] وفي الصورة التالية تطبيق لهذا المنهج وسير عليه فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة؛ أفأصل أمي؟ قال نعم صلي أمك). [2]

والمتصفح لسيرة الرسول ﷺ يجد بعض المواقف التي وقعت بينه وبين بعض اليهود والنصارى المعاصرين له، وذكر هذه المواقف والأحداث لا يحتمله هذا البحث الموجز؛ لكن أقول: لم يكن موقف الرسول ﷺ من اليهود أو النصارى موقفاً عنصرياً بسبب ذواتهم أو انتمائهم العرقي، فقد كان يخدمه غلام يهودي، ويبيع ويشتري منهم كما مر معنا في خبر زيد بن سعنة، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي،[3] وكان يأتي الحبر من اليهود إلى مجلسه ﷺ فيتحدث اليهودي عما يجده من الحق في التوراة فيصدقه النبي ﷺ [4]

كما لم يكن موقفه منهم بسبب أسماء أديانهم؛ لأن الدين الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ من حيث الأصول والقواعد، لأن كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين جاؤوا بالدعوة إلى الوحدانية وطاعة ومتابعة الرسول المرسل، لكن اليهود والنصارى الذين عاصرهم الرسول ﷺ كان أكثرهم على خلاف ما جاء به الأنبياء والمرسلون؛ لذا كان التشنيع عليهم ونقض مفترياتهم وكشف شبهاتهم،كما في قوله عز شأنه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا

(1) جامع البيان66/28.

(2) صحيح البخاري، ح 2477، 924/2، وصحيح مسلم، ح 1003، 696/2.

(3) صحيح البخاري، ح 1963، 729/2.

(4) صحيح مسلم، ح 2786، 2147/4.

كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ سورة المائدة،14،13. وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ﴾ فلم تعم الآية كل القوم بل وصفت وحددت المراد.

وفي الآية التالية نرى نعي القرآن عليهم لموقفهم الأثيم من الحق ورغبتهم في صد الناس عنه قال جل ثناؤه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِ ين. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة آل عمران، 98 – 101.

ومع كل ذلك فكان الإنصاف سمة منهج الإسلام مع المخالف ومع غيره، كما في قوله تعالى:﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة آل عمران،75. وكما في قوله تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ سورة آل عمران، 113-115.

وبعد هذا التطواف الجميل مع قيم الإسلام ومثله ومبادئه لا يجد الباحث بدا من الاعتراف بالعجز عن الإحاطة عن كل ما شمله الإسلام؛ لأنه يعلم أن ما تركه أكثر مما ذكره، وما أشار إليه أقل مما تجب الإشارة إليه، ومع ذلك أقول كما قال الدكتور محمد عبدالله دراز في ختام كتابه الجميل الدين:(إنه لن يسع الباحث المنصف متى تحقق من هذه الإحاطة العلمية الشاملة، إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلا لتاريخ عصر... وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورود، فمهما تباعدت الأقطار والعصور، ومهما تتعدد الأجناس والألوان واللغات، مهما تتفاوت المشارب والنزعات سيجد فيه كل طالب للحق سبيلاً ممهداً يهديه إلى الله على بصيرة وبينة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ سورة القمر،17. [1]

(1) الدين ص 172.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، الحمد لله الذي شرع وقدر، وقضى فأحكم، وأمر ويسر، وأنذر وبشر، والحمد لله على ما من به ولطف من إتمام هذا البحث المتواضع الذي قصدت أن يكون مبيناً جانباً من عظمة هذا الدين العظيم، وأن يكون سبيلاً لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومن شكر الله علينا بهذا الدين أن نجتهد في تقريبه لغيرنا، وأن ندعوهم ليشاركونا فيه، وينعموا بالمنن الربانية والهداية الإلهية .

وقد ظهر لنا في هذا البحث أن الإسلام جاء بكل مقوم من مقومات الحياة والأحياء فما من مقوم يحتاج إليه البشر إلا جاء الإسلام يدعو إليه سواء في ميدان العلم، أو ميدان الاجتماع، أو ميدان الإدارة .

وفي الختام أسأل الله أن يجعله من العلم النافع والعمل الخالص وأن يثقل به الموازين، وينفعنا به في الدارين، إنه ولي ذلك ومولية والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس بأهم المراجع

- القرآن الكريم

- الأحاديث المختارة، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، ت عبد الملك بن دهيش، نشر مكتبة النهضة الحديثة، ط 1، مكة المكرمة، 1410.

- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 1420هـ.

- الإسلام أصوله ومبادئه، محمد بن عبد الله السحيم، نشر وزارة الشؤون الإسلامية ، الرياض، 1422.

- الإسلام عام 2000، مراد هوفمان، ترجمة عادل المعلم، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ.

- إعلام الموقعين ، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ن دار الجيل، بيروت، 1973.

- إفحام اليهود للسموأل بن يحي المغربي، تحقيق محمد الشرقاوي، ن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، 1407.

- الإنسان في ظل الأديان، عمارة نجيب، نشر مكتبة المعارف، الرياض، 1400.
- بدائع الفوائد، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق بشير عيون، نشر مكتبة المؤيد، الرياض.
- جامع البيان جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تأليف : محمد بن جرير الطبري ، نشر: مؤسسة الرسالة ، المحقق : محمد أحمد شاكر ، الطبعة الأولى 1420 هـ .
- تحفة الأحوذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري ، ن دار الكتب العلمية، بيروت.
- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، أنسلم تورميدا الذي أسلم وتسمى بعبد الله الترجمان، تحقيق عمر وفيق الداعوق، نشر دار البشائر الإسلامية.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1405.

- تفسير التحرير والتنوير، تأليف : محمد الطاهر بن عاشور ، نشر: دار سحنون بتونس
- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء ، نشر دار الفكر، 1401.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، عبدالرحمن بن رجب، تحقيق فؤاد بن على حافظ، نشر جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، 1419هـ.
- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، تحقيق مازن مبارك، نشر دار الفكر المعاصر بيروت، ط 1، 1411.
- الخراج وصناعة الكتابة ، قدامة بن جعفر، نشر دار الرشيد، العراق.
- دراسات في الأديان الوثنية القديمة، أحمد علي عجيبة، نشر دار الآفاق العربية، مصر، ط 1، 1424.
- الدين، محمد عبدالله دراز، دار القلم، الطبعة الثانية، 1390هـ.
- الدين والدولة في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ ، على بن ربّن الطبري، تحقيق عادل نويهض، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1402.
- الرحلة إلى الإسلام يوميات دبلوماسي ألماني، مراد هوفمان، ترجمة د محمد سعيد دباس، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1426هـ.

- رحلة إلى مكة، مراد هوفمان، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1421هـ.
- رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد غراب، المنتدى الإسلامي، لندن، الطبعة الثانية، 1411هـ.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الفكر، بيروت.
- سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر، بيروت.
- سنن البيهقي ، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر مكتبة درا الباز، مكة المكرمة، 1414.
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر ، نشر دار إحياء التراث، بيروت.
- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1407، ط 1.
- سنن النسائي ، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات، سوريا، ط2، 1406.
- صحيح بن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، نشر دار الرسالة، ط 2، بيروت، 1414.
- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، نشر دار ابن كثير ، بيروت، 1407.
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء التراث.
- الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، ترجمه عفيف البعلبكي، نشر مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، 1418هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، الرياض. 1413.

– الفوائد، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق أحمد راتب عرموش، نشر دار النفائس، ط 1، 1399.
– فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، نشر المكتبة التجارية، مصر، ط 1، 1356.
– القرآن والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة، موريس بوكاي، نشر دار المعارف.
– كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.
– لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، نشر دار صادر بيروت، ط 1 .
– محمد ﷺ مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، ترجمة الدكتور عبدالرحمن عبدالله الشيخ، نشر دار المريخ، الرياض، ط 1، 1425هـ .
– محمد في الكتاب المقدس ، عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شما، نشر رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر، الطبعة 1، 1405.
– محمد نبي الحب، محمد مجدي مرجان، نشر دار النهضة العربية ، مصر.
– مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،تحقيق محمود خاطر، نشر مكتبة لبنان، بيروت، 1415.
– المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت، 1411.
– المسند ،الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، نشر مؤسسة قرطبة، مصر.
– مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض بن موسى اليحصبي، نشر المكتبة العتيقة.
– مصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، نشر مكتبة الرشد، الرياض، ط 1.
– مصنف عبد الرزاق ، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي ، بيروت، الطبعة 2، 1403.
– المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله، نشر دار الحرمين، القاهرة، 1415.

- المعجم الصغير، ، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمود شكور، محمود الحاج، المكتب الإسلامي، بيروت، 1405.
- المعجم الكبير للطبراني، ، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، نشر مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1404.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، نشر دار الفكر، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت.
- موقف الإسلام والكنيسة من العلم، عبد الله المشوخي، نشر مكتبة المنار،الأردن، الطبعة 1، 1402.
- النهاية في غريب الأثر، أبو السعادات محمد بن المبارك الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزواوي، و محمود الطناحي، نشر المتبة العلمية بيروت، الطبعة 1 ، 1399.

ID - 72

AL-DIRĀSĀT AL-ISLĀMIYYAH

Arabic Journal

OF THE

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE
ISLAMABAD

Vol. XXXXIV No. 1 *** January – March 2009

	In Pakistan	Outside Pakistan	
		For Institutions	For Individuals
Annual Subscription	Rs. 200.00	$ 75.00	$ 70.00
Single Copy	Rs. 60.00	$ 25.00	$ 20.00

All business correspondence should be addressed to:
Director (Publications)

Islamic Research Institute
International Islamic University
Islamabad (Pakistan)
E-mail: <dirasat2001@yahoo.com>
E-mail: <irisirah@apollo.net.pk>
Fax: 92 - 051 - 2254874

Printed at: Islamic Research Institute Press, Islamabad.